

البوسنة و الهرسك

مأساة شعب وهوان أمة

فؤاد شاكر

الدار المصرية اللبنانية

البوسنة والهرسك

مأساة شعب وهوان أمة

الناشـــر : الـدار المصريـة اللبنانيـة
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع : ٤٣١٩ / ٩٣
الترقيم الدولى : 7 - 069 - 270 - 977
جمـــع : آر ـ تك
العنوان : ٣٣٩ ش السودان ـ ت : ٣٤٧٢٥٥٥
طبـع : المـدنى
العنوان : ٦٨ شارع العباسية ـ ت : ٨٢٧٨٥١

الطبعة الأولى : ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م
الطبعة الثانية : ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م

فــؤاد شــاكــر

البوسنة والهرسك

مأساة شعب وهوان أمة

النـــاشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هوان أمة وإبادة شعب

من العسير ـ على القلب والفكر معاً ـ إفاضة الحديث عن شعب ـ معاصر لنا ـ يُهان ويباد، على مشهد من العالم كله: المتقدم والمتأخر، وتُتابع وسائل الإعلام أحداثه الدامية المفزعة يوماً بعد يوم، وطوال عامين، وكأنه مسلسل أمريكى تليفزيونى متصل الحلقات، لا يكاد أن ينتهى، بل لا يريد له «البعض» أن يبلغ الختام. ونكتفى نحن ـ العرب وأمة الإسلام ـ بالمشاهدة، والتعليق، وربما بالتأثر والتأفف العابر للحظات: أليس هذا يدخل فى دائرة «الإيمان».. لأنه إنكار بالقلب، ولو أنه أضعف الإيمان...؟!

بماذا نصف أولئك الذين ينظرون ـ بلا مبالاة ـ إلى وحْش أو «عُتُل» على قارعة الطريق يُوسِعُ انساناً وديعاً مسالماً ضرباً وسحقاً.. أو يرقبون ملاكماً جباراً ينهال بالضرب القاتل على أخ له وزميل،

والحَكَم متشاغل بالتهام «كوز ذرة» مسلوق أو فطيرة «بالهامبرجر» ؟!.. إلا إذا رجعنا إلى عصر الرومان الذين كانوا يمرحون ويفرحون بمشاهدة الوحوش الضارية وهي تمزق أجساد المحكوم عليهم سياسياً بالإعدام، فى حلبة المصارعة غير المتكافئة! (بالمناسبة: أوروبا والحضارة الغربية كلها وشعوبها تزهو وتعتز بانتسابها حياتياً إلى الرومان وقوانينهم) .

لم يعد للمسلمين شوكة ولا صولة.. فالمسلمون اليوم ـ إمّا من فرط الترف والثراء واللّين، وإمّا من شدة الضعف والفقر والإذعان ـ لايحاربون، أى لا يجاهدون! فى حين أنهم من أجل المال والتسلط والسلطان يتحاربون!

إن شعوباً وجماعات وجمعيات وأجناساً ودولاً، تَشْتَجِر وتجهد من أجل إطالة منارات المساجد، وإطالة شعيرات الذقون، وإطالة حبات المسابح، وإطالة أذيال السراويل، وإطالة أحاديث الشوق والوجد والصفاء والاصطفاء والعفة والنقاء.. فهذا ـ فى زعمهم ـ يكفى كمدخل إلى الجنة.. أما الهوان والصغار والمذلة بين الأمم.. فلا حرج.. إذ لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها!.

فساد . وكساد . وغثاء . فضجر !..

على عتبات القرن الحادى والعشرين، وفى فترة «الحمْل» للنظام العالمى الجديد، تُهيأ الأجواء، بالضرب والذبح والتقتيل والتدمير

والتأديب وإحلال القواعد وانتزاع المقاعد.. إنه أسلوب صارم عارم فى تذويب الحقوق الطبيعية فى الوطن، والثقافة، واللغة، والحكم.. وفى تهجير مكثف من وإلى مناطق المسلمين، على غرار ما حدث فى الإتحاد السوفيتى السابق ويوغوسلافيا سابقاً، وإحلال دخلاء غرباء مغتصبين، يزادون عدداً ـ وفقا لسياسة مرسومة ـ فترتفع نسبتهم فى المواقع الجديدة، فيحق لهم المطالبة ـ ولو بالقوة ـ بحقوق (وقد تفرضها الأمم المتحدة!) ثم يصبحون هم «الأصل»، والباقون تابعين لهم.. ها هو ذا الدرس الثانى ـ فى نصف القرن المنصرم ـ يُعْطَى للدول الإسلامية، أو للبقايا «المتخلفة» من المناطق الإسلامية، فى أوروبا، وآسيا، ومن بعد فى أفريقيا.. وكان الدرس الأول فى فلسطين وقبرص!

فى عام ١٩٨٠ مات الماريشال «تيتو» موتة غير طبيعية ولا إنسانية! فقد وضعوه ـ بعد أن بدأ الاحتضار وراح فى غيبوبة ـ داخل غرفة كبيرة بالمستشفى، وجسمه متصل بعشرات الأجهزة والأسلاك والخراطيم والمضخات، واستمر على ذلك ـ وهو فى معزل عن الحياة وعن الدنيا ـ لمدة شهرين. فى حين كان السؤال على كل لسان داخل يوغوسلافيا وخارجها: «وماذا بعد تيتو»؟ أو: «ماذا سيفعل اليوغوسلاف بعد تيتو؟» ..

إن هذا الرجل ـ العامل البسيط فى مصنع الصلب ـ استطاع بجدارة أن يضبط بقدر كبير إيقاع الحياة والعلاقات بين شعوب

وأجناس وطوائف يوغوسلافيا، طوْعاً أو كرْها، لنحو خمسة وثلاثين عاماً متصلة (كما سوف نرى)، كما نجح فى إكسابها شخصية دولية متميزة، وواجَــهَ ستالين وهو فى ذروة سطوته وجبروته، متحدياً إيَّاه فى صراحة ووضوح: «لسوف نكون عند الكسر أشد صلابة من الجوْزة»! وتلك الصلابة الأشد من الجوزة، هى التى حار فيها هتلر من قبل طوال أربع سنوات، حتى «خلَعت» أسنانه، أما هى، فلم تنكسر!

إن يوغوسلافيا تتكون من شعوب ريفية جبلية لها تاريخ طويل مع الحرب والصبر، مع السلاح والكفاح، مع المقاومة والمساومة، وبعد خضوعها عدة قرون لسيادة الدولة العثمانية القوية السَّنية (أى الرفيعة المستوى)، لم تستطع أن تصمد بعد تيتو إلا لسنوات معدودات، ثم تفجر الحقد والصراع، وشراسة الأطماع، ومحاولة سافرة من داخل يوغوسلافيا وخارجها، لاستئصال المسلمين وإضعاف شوكة الإسلام، تحت أسماء وشعارات ساديّة خبيثة، مثل: «التطهير العرقى»، و «حماية القومية»، و «تجميع الأقليات»... وردّدنا نحن، بلا تفكير للأسف، هذه الشعارات والتضليلات، ولم نحاول مرة واحدة أن نسأل: لماذا تقولون الحرب بين الصرب والكروات والمسلمين وليس البوسنيين؟

هل جعل أعداء الإسلام الكارهون للمسلمين، من «العقيدة» جنسية وقومية وعرْقاً فى تصنيف الأعراق والأجناس؟ ألن يكون المسلم صربياً أو كرواتياً أو روسياً أو صينياً أو أمريكياً؟.. إذا كان الأمر كما يصفون ويصنّفون، فإن «أمة الإسلام» كلها إذن ـ وحيثما يوجد

مسلمون ـ يُعتدَى عليها عدواناً وحشيّـا مهيناً سافراً، وهى لا تدرى، فإن درت، فالمصيبة أعظمُ!

وما من جديد تحت الشمس.. فمنذ سنوات بعيدة، فى أثناء الحملة الإنتخابيّة بالولايات المتحدة، سُئل المرشح «چيمى كارتر» عن الوضع المنذر بالانفجار فى يوغوسلافيا، فأجاب: «لا يجب أن تقاتل أمريكا من أجل يوغوسلافيا»!.. الجديد فى عالم اليوم، أن قيادات أمريكا والغرب كله، تقاتل وتقتل ـ تحت علم الأمم المتحدة ـ فى الشرق الأوسط ـ وفى الصومال، (وربما غداً فى إيران والسودان وباكستان) وهى لاتحرك ساكناً ـ برغم الجرائم والمذابح والتدمير والغصب والاغتصاب ـ إزاء العدوان على مسلمى البوسنة أو الهرسك، مع مرور الشهور والأعوام.. والذين هم وحدهم الممنوعون من الحصول على السلاح والعتاد!

أوْلى بالمسلمين أن يعيدوا النظر فى أنفسهم، وأحوالهم، وقدراتهم، وعلاقاتهم، وفى هوانهم وانتكاساتهم.. فلن يدفع عنهم أحد، ولن يشفق عليهم أحد، حتى المولى ـ سبحانه ـ خالقهم والمُنعم عليهم قال مُحذراً: ﴿وإنْ تتولّوْا يَسْتبدِلْ قوماً غيرَكم ثم لا يكونُوا أمثالكم﴾..[1]

من هنا.. تعمدنا الإفاضة فى فصل كامل عن هذا الرجل الخليفة،

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة محمد.

أو السلطان العثمانى «سليمان العظيم» كما أشرنا إلى موقف للخليفة العباسى «المأمون» ـ بإيجاز حتى لا نطيل ونُملّ ـ إعذاراً إلى الله، ووفاء بحق «رجالنا» على أمتنا وتاريخنا وحضارتنا، التى لا يكاد ـ للأسف ـ أبناؤها الحيارى اليوم، يعلمون شيئاً ذا قيمة كبيرة عنها.. فلربما تذكَّرَ بعض ممن بقى من جيلنا «رجالاً» سلفوا أشداء كرماء، ولعل الجيل «الصاعد» اللاحق بنا ينتبه، ويتأمل، فيعتز بماضيه، ويعد لمستقبله، على نحو أكرم وأفضل وأوعى..

ولله الأمر من قبل ومن بعد..

﴿والله غالبٌ على أمره، ولكن أكثر الناس لا يَعْلمون﴾..

القاهرة ـ رمضان المعظم ١٤١٣هـ

فؤاد شاكر

(١)

يوغوسلافيا والصرب

فى عام ١٩٢٩ ظهر لأول مرة فى التقسيم السياسى لأوروبا اسم «يوغوسلافيا» كدولة كانت قد حصلت على استقلالها عام ١٩١٨ تضم نحو عشرين مليوناً من السكان في مساحة تقرب من ٢٥٦٠٠٠ كيلو متراً مربعاً، وفى عام ١٩٦٣ أعلن عن تقسيمها إلى ست جمهوريات اشتراكية فى اتحاد فيدرالى عاصمته بلجراد، وهى جمهوريات: سلوڤينيا، كرواتيا، البوسنة ـ هرزجوڤينيا، مونتنجرو، مقدونيا، والصرب (وهذه الأخيرة تضم منطقتين تتمتعان بالحكم الذاتى هما: ڤوچڤودينا، وكوزوڤو، وفيها العاصمة الفيدرالية بلجراد). وعدد السكان فى يوغوسلافيا نحو ٢٥ مليوناً. والأديان السائدة هى: الإسلام ـ الأرثوذكسية الشرقية، والكاثوليكية الرومانية.

وليوغوسلافيا جيران ـ عل الحدود ـ كثيرون: فى الشمال: إيطاليا،

النمسا، المجر. وفى الشرق: رومانيا، بلغاريا. وفى الجنوب: اليونان، ألبانيا. وفى الغرب: بحر الإدرياتيك بشواطئه السياحية وجزره العديدة المتناثرة، وكان شاطئه الممتد من أقصى الشمال إلى الجنوب يسمى: شاطىء دالماتيا.

وتتمتع يوغوسلافيا بسهول، وجبال، وتلال، وحقول، ومراع، وهضاب، وأنهار، وخلجان، وموانىء، ومدن، وقرى، وثروات كبيرة معدنية وبترولية، زراعية وحيوانية، صناعية وعمرانية، بشرية وحضارية. ويكفى مثالاً لذلك بعض ما فى جمهورية البوسنة ـ هرزجوفينيا (أو الهرسك): إلى جانب الطاقات البشرية والفنية هناك موانىء للصيد والتجارة، ومزارع خصبة، ومراع، وغابات، ومناطق وجزر سياحية، ومحاصيل: كالفاكهة، والقطن، والطباق (الدخان)، والزيتون، والقمح، والعنب، وفيها من المعادن: البوكسيت، والكروم، والحديد، والرصاص، وفيها من الصناعات: النسيج، والجلد، والحديد والصُلب، والألومنيوم، والرصاص، والسجائر، والأخشاب، والورق، والسكر (من البنجر)، والصناعات الميكانيكية، والكيميائية، والسجاد، وتكرير البترول..

تلك المنطقة من العالم ـ يوغوسلافيا ـ لها تاريخ طويل متصل العصور والعهود والصراعات الدامية والحروب القاسية. لم يستقر بها حال ولا قرار، وكأنها لعبة فى مباريات التاريخ: تتقاذفها الدول المجاورة، وتنتزعها أيدى القياصرة والأباطرة والملوك والسلاطين، وما زالت ـ

كما نسمع ونرى ـ مَحطٌ أنظارٍ ومَنْهلَ أطماع، وربما تكون فى الغد القريب مضرب أمثال، لإرهاب الدول والمناطق ذات القوميات والأديان المتصارعة، ولا أحد يعلم بعد، ما يُخْفِى «النظام العالمى الجديد» الذى تُنْسَجَ فى الظلمات خيوطه على مهل، وكم ستُراق من أجله دماء، ويسقط ضحايا على عتبات القرن الجديد.

قديماً كان يُطلق على هذا الجزء من العالم صربيا، أو بلاد الصرب، وقد بدأ ظهور الصرب كجماعات مدنية منظمة فى أواخر القرن الثالث الميلادى، فى إمارات متناثرة يحكمها أمراء أو زعماء، فى نهاية القرن التاسع الميلادى، وأجزاء من تلك المقاطعات تحت وصاية الدولة البيزنطية، وبدخول أمراء الصرب القدماء فى المسيحية ـ حوالى عام ٨٧٥م ـ خضعوا شيئاً فشيئاً لسيطرة البلغار والبيزنطيين.

واستمر خضوع الصرب لنفوذ البلغار فترة طويلة. وفى القرن الرابع عشر الميلادى تمكنوا من التمرد. وبلغت الصرب ذروة القوة والنضال فى النصف الثانى من ذاك القرن الرابع عشر (١٤) حين تمكن «إتْين الحادى عشر» من الغزو والانتصار على مقدونيا، وألبانيا، وإيبريا، وتسّالى، فتوّجَــةُ البطريرك «بِش» إمبراطوراً قيصراً للصرب واليونانيين (١٣٤٦) لكن إمبراطوريته انهارت وتفككت بعد موته، وتنَازُعِ خلفائه.

ثم دخلت صربيا الوسطى فى حوزة العثمانيين بعد هزيمة

«كوزوفو» سنة ١٣٨٩ . وفى القرن التالى انضمت إليها ـ تحت المظلة العثمانية ـ آخر الإمارات الصربية. وفى عهد العثمانيين حَدَثت عدة مقاومات عنيفة من جانب الصرب، وهرب كثير منهم إلى المجر، ثم اتجه آخرون نحو النمسا. وحاول بعض الصربيين المتمردين الإلتجاء إلى قيصر روسيا، لكنه خيّب ظنهم ومسعاهم. غير أن الاضطرابات الهادفة إلى الاستقلال ظلت مستمرة على مدار السنين، خاصة من أوائل القرن التاسع عشر. وفى عام ١٨٧٨ عارض الروس استقلال الصرب فى أثناء مؤتمر الصلح فى برلين.

وفى بداية هذا القرن (العشرين) قُتل الملك «الكسندر الأول» بسبب تمسكه بالسلطة المطلقة والقهر، وخَلَفَه «بطرس كارادْيو ردفيش» ملكاً دستورياً، ثم دخلت الصرب فى تحالف مع الروس وفقاً لمعاهدة سرية (١٩١٢)، ثم تعرضت لهجوم من جانب النمسا وبلغاريا معاً، وقاومت مقاومة شديدة عام ١٩١٥، إلى أن أُعلن استقلالها بكل مقاطعاتها وشعوبها عام ١٩١٨ . وفى عام ١٩٢٩ اتخذت لنفسها اسم «يوغوسلافيا» وفى الحرب العالمية الثانية احتلها الألمان النازيون عام ١٩٤١ . وبعد الحرب أُعلن استقلالها عام (١٩٤٦) كجمهورية شعبية فيدرالية.

(٢)

يوغوسلافيا والكروات

الكروات سكان أصليون لمنطقتهم، كانوا يكوّنون مع الصرب مجموعة واحدة، ثم انشقت إلى قوميتين: الكروات المسيحيين الكاثوليك، ويقطنون الأجزاء العليا من نهر دراف[١] ونهر الساف. وكرواتيا جمهورية في الاتحاد الفيدرالي اليوغسلافي (السابق)، ويسكنها نحو خمسة ملايين، وعاصمتها زَغْرب. وهي من أكثر جمهوريات الاتحاد السابق نمواً وتقدماً صناعيّـا واقتصاديّـا.

في العصر الروماني كان استقرار الكروات (في القرن السابع)، وفي القرن التاسع تحولوا إلى الكاثوليكية، ومنذ ذلك الحين نشأ العداء بينهم

(١) أو دراو بالألمانية، وهو يصب في نهر الدانوب، طوله ٧٠٧ كم، يبدأ من إيطاليا من جبال الألب ويروي سلوفينيا وكرواتيا.

وبين الصرب الأرثوذكس، ثم اتخذوا لأنفسهم نظام الحكم الملكى، متراوحين فى الخضوع لمن حولهم من الممالك والإمبراطوريات، مثل ألمانيا، والمجر (هنغاريا) التى ظلت تسيطر عليهم لثمانية قرون تحت مظلة تاج «القديس إتْين». إلا أن كرواتيا احتفظت بعلَمها ومجلسها التشريعى (ديِيت).

وفى عام ١٥٢٦ دخل جزء كبير من كرواتيا فى نطاق الدولة العثمانية، وضمنت معاهدة «كارلوفيتز» احتفاظ الأتراك بكرواتيا. فى عام ١٨٠٥ ضم الإمبراطور الفرنسى نابليون مناطق كرواتيا وسلوڤينيا إلى حوزته، ثم افتقدها عام ١٨١٣.

ومع ابتعاث القومية ـ عام ١٨٤٨ ـ انضم الكروات إلى حُكم أسرة الهابسبورج المجرية الكاثوليكية، وبعد أن طرأ نظام الحكم المزدوج: النمسا ـ هونغاريا (المجر) عام ١٨٦٦، حصل الكروات على شكل من الاستقلال الذاتى واستخدام اللغة القومية الكرواتية. وعلى الرغم من أنه فى عام ١٩١٨ كوّن الكروات مع الصرب والسلاڤيين الدولة المستقلة التى اتخذت اسم «يوغوسلافيا» فى عام ١٩٢٩، فإنه منذ ذلك الحين بدأت القلاقل والاضطرابات. وحاول الكروات بكل قوة وعزم الاحتفاظ بنزعتهم القومية بزعامة حزب الفلاحين الذى كان يقوده «إتْين راديش». وفى ٦ يناير ١٩٢٩ أوقف الملك الكسندر العمل بالدستور وأعلن الحكم الديكتاتورى. ومع ذلك ظلت مقاومة

واضطرابات الكرواتيين مستمرة، ولم تهدأ إلا بقتل الملك وزوجته عام ١٩٣٤. عشية الحرب العالمية الثانية حصل الكروات على مطلبهم من الحكم الذاتى لقسم كبير من أراضيهم، وفى الفترة من عام ١٩٤٢ إلى ١٩٤٥ تحولت كرواتيا إلى حماية وسيطرة النازى الألمان والفاشيست الطليان، إلى أن أصبحت - بعد الحرب - إحدى جمهوريات يوغوسلافيا، ضمن مجموعة الدول الإشتراكية التى كانت تدور فى فلك الاتحاد السوفيتى (السابق) غير أنها - يوغوسلافيا - اتخذت لنفسها مساراً شيوعـيّاً خاصّـا منذ عام ١٩٤٨ - كما سوف نرى - مما أغاظ ستالين، فحذّر الدول الشيوعية الأوروبية مثل: بولندا، والمجر، وبلغاريا، وتشيكوسلوفاكيا (سابقا أيضاً!) من مغبّة الخروج عن أسْر الإطار الشيوعى الروسى، أو التمادى فى ميول القومية الانفصالية.

(٣)

يوغوسلافيا والبوسنة

«البوسنة ـ هيرزجوفينيا» إحدى جمهوريات الاتحاد الفيدرالى اليوغوسلافى السابق، مساحتها ٥١١٢٩ كم٢ ويسكنها نحو خمسة ملايين نسمة، معظمهم من المسلمين، وعاصمتها: سراييفو.

تمتد أراضيها من الشاطىء الإدرياتيكى إلى سهول نهر الساف. فى الشمال: مرتفعات تغطيها الغابات، وتخترقها سهول تتخللها فروع هذا النهر. وفى الجنوب: هضاب قد يصل ارتفاعها فى بعض المواقع إلى ألفى متر. ويقطعها سهل نرتڤا، الذى يعتبر طريقاً إلى بحر الإرياتيك. والمناخ السائد هو مناخ البحر المتوسط عند الشواطىء وما حولها، أما فى الداخل فيغلب أن يكون طقساً قاريًا.

والأرض الزراعية خصبة، لكنها تحتاج لرعاية أفضل، إذ أنها تعطى محصولاً غير مرتفع، مثل: القمح، والذرة.

والرعى سمة أساسية فى مناطق المرتفعات والغابات. وفى باطن الأرض معادن كثيرة مثل: الحديد والفضة، والرصاص، والأملاح، والكربون (الفحم)، وفى مناطق الغابات تكثر الأخشاب وصناعاتها كالورق. وعلى رأس قائمة المصنوعات فى تلك المناطق البوسنية: التعدين، النسيج، الحديد والصلب، وتلك المرتبطة بالألبان واللحوم والفاكهة والأخشاب.

من أين جاء اسم بوسنيا (أو البوسنة)؟ من أحد فروع نهر الساف، حين استقرت على ضفتيه وقريباً منه قبائل أُدرجت فيما بعد ـ فى القرن السابع الميلادى، أى الأول الهجرى ـ فى عداد السلافيين، وقد ضمتهم إمارة خاصة بهم. وفى سنة ١٩٢٧ اقتطعت بلغاريا جزءاً من أراضيهم الشرقية، ووضعت الجزء الباقى تحت حمايتها، ثم استقلت البوسنة كولاية يحكمها أمير يعترف بوصاية ملك المجر (هنغاريا). فى القرن الرابع عشر، وبالرغم من النزعات العنيفة بين الأسر الحاكمة، انتزعت البوسنة استقلالها، من حدودها حتى الإدرياتيك، وجاء ذلك ثمرة لنضال قاده «إتْين الثانى كوترومانيش» الذى خلفه ابن أخيه وأعلن نفسه ملكاً على البوسنة والصرب. لكن الأمور تدهورت نتيجة للصراعات الداخلية، إلى أن افتتحها السلطان العثمانى محمد الثانى عام ٨٦٨ هـ ـ ١٤٦٣م. منذ ذلك الحين، بدأ يحكمها «باشا» من قِبل السلطان، وسرعان ما دخل أهلها ـ طواعية ـ فى دين الإسلام.

ثم انتزع السلطان العثمانى من أيدى النمسا منطقة «هرزجوڤينيا» التى اغتصبتها وضمتها إلى أراضيها فى الفترة من ١١٣٠ـ١١٥٠ هـ (١٧١٨ ـ ١٨٣٧م)، وضمَّها إلى البوسنة.

وفى القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) طمعت الصرب ـ بعد ابتعاث النزعة القومية بها ـ فى احتواء البوسنة وهرزجوڤينيا (الهرسك). وفى مؤتمر برلين (١٢٩٥ هـ ـ ١٨٧٨م) قرر مؤتمر برلين أن يوضعا تحت إدارة «النمسا ـ المجر»، مع الإقرار بسيادة السلطان العثمانى عليهما، واستمر ذلك إلى أن تحقق الانفصال عن تركيا عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م).

بسبب الضغينة الكامنة والعداء الساخط بين أهل البوسنة تجاه النمسا، وبسبب اغتيال شاب من القوميين الصرب «الأرشيدوق فرانسوا فرديناند» أثناء زيارته لمدينة سراييفو، اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى. وفى عام ١٣٣٧ هـ (١٩١٨م) ـ أى عقب الحرب ـ ضمت البوسنة ـ الهرسك (هرزجوڤينيا) إلى ما أطلق عليه اسم «يوغوسلافيا». وفى الفترة بين ١٣٦٠ ـ ١٣٦٥ هـ (١٩٤١ ـ ١٩٤٥م) ـ أى فى أثناء الحرب العالمية الثانية ـ أصبحت إحدى جمهوريات الاتحاد الفيدرالى اليوغوسلافى.

الآن، لابد لنا من وقفة متأنية إزاء «رجلين» أو شخصيتين متميزتين، كانت لهما تأثيرات تحولية كبيرة على تلك المناطق وشعوبها: «سليمان» و «تيتو»..

(٤)

سلطان السلاطين

ليس هذا اللقب من ابتكارنا..

وإنما هو بعض ما أضفاه المؤرخون على هذا الرجل وأضافوه إليه، وهم ـ فى ذلك ـ من الشرق ومن الغرب سواء.

فهو بحق، كان سلطان السلاطين، فاتح قارات ثلاث: سليمان الأول، الذى هز بعنف عالم القرن السادس عشر وجعله يترنح، فدفع بالإمبراطورية العثمانية إلى ذروة مجدها وعظمتها.

يعرفه الأوروبيون باسم «سليمان العظيم». ويُطلق عليه العرب والمسلمون اسم «سليمان القانونى». أما هو، فقد جمع باقتدار بين كفاءتين متميزتين: استراتيجية عسكرية باهرة، وتشريع قانونى مبجَّل.

فى ذلك العصر ـ عصر سليمان القانونى العظيم ـ عاش العالم فى

حرب شبه دائمة: الشرق فى مواجهة الغرب. قوّتان كبيرتان، لكل منهما عقيدته ومفاهيمه وأخلاقيات حضارته الدافعة المسيطرة، فاشتبكا فى صراع دموى عنيف على الأرض، وفى البحار، وعلى امتداد ثلاث قارات، إنها الحرب المقدسة، يغذوها ويؤجج نيرانها ضراوة المتحاربين باسم الإيمان، وشهد الزمن، تدفق جيوش السلطان العثمانى ـ وهو بمثابة سيف الإسلام ـ تتدافع نحو قلب أوروبا الشرقية: من بلجراد إلى بودابست. ثم تخترق ظافرة ـ الأودية والسهول والقرى والمدن والعواصم، حتى تقف متحفزة تحت أسوار ڤينا.

وفى الجنوب، حول شواطئ المحيط الهندى، تتلاقى ـ فى غضب ـ أساطيل القوتين العُظْمَيَيْنِ بجيوشهما المتحاربة، وفى الخليج العربى، وفى البحر الأحمر، ثم البحر المتوسط الذى يشكل حلبة صراع شرس لا يكاد يهدأ أو يتوقف.

وفى نفس العصر الذى ظن فيه كريستوف كولومبس أنه يتجه غرباً. فى طريقه إلى الهند، وتحقق لفاسكو دى جاما أن يصحح المسار ـ بمساعدة وتوجيه أمير البحر العربى أحمد بن ماجد ـ بالدوران بسفنه حول أفريقيا، ونجح ماجلان فى إكمال الدائرة، برحلة بحرية ربطت إلى الأبد الشرق بالغرب. من أطراف المعمورة.

إنه عصر بارود المدافع، الذى أضاف للقوة العثمانية الضاربة قيمة متزايدة، وجعلها أشد فتكاً وأبعد مدًى وأكثر رهبةً من ذى قبل،

وأكسب أبراج القلاع الحصينة منظراً يجمع فى التناقض بين الأسَى والطرافة. لقد أصبح فى مقدور الجندى البسيط أن يطيح من موقعه على البعد، بالفارس المقدام النبيل، فيطير مترنحاً فى الفضاء متخليًّا عن فرسه، ثم يهوى إلى الأرض من أعلى البرج، ممزقاً تقطر منه الدماء.

وبالمثل، علَتْ وهَوَتْ نجوم الأعلام والمشاهير الذين عُرف بهم هذا القرن (العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى): شارل الخامس سليل أسرة هابسبورج الملكية، ورأس الإمبراطورية الأسبانية ووريث الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والذى نذر نفسه للجهاد ضد الإسلام. وفرانسوا الأول، ومنافسه الميكيافيلّى الماكر العنيد، ملك فرنسا المتشح بالمسيحية المتعصبة، لكنه على استعداد لأن يبيع نَفْسه للشيطان أو لسلطان الأتراك من أجل امتلاك إمارة ميلانو، شريان الحياة بالنسبة لإيطاليا. ومارتن لوثر، المصلح الدينى الذى فَصَم ـ عن غير قصد ـ عُرَى الوحدة المسيحية، وحظى بحماية الإمبراطور شارل! وهنرى الثامن، ملك إنجلترا، الحليف الزئبقى المتذبذب، وهو فى نفس الوقت، عدو الثلاثة هؤلاء اللدود، وحامى حمى الإيمان، والذى انفصل عن بابوية روما حتى يتمكن من طلاق زوجته عمة شارل. ثم.. إيفان الرهيب، الذى دفع بإمارة موسكوفى إلى التوسع والامتداد، وإلى المدى الذى لم يتوقف حتى انهيار روسيا مع أفول القرن العشرين.

فى مركز هذا المسرح العالمى، يقف فى ثبات راسخ، فى شموخ

يعلو فوق الجميع: سليمان، أمير المؤمنين، ظل السماء على الأرض، حامى حمى المدائن المقدسة: مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس، سيد ملوك العالم، مانح القوانين، مُلقى الرعب والإعجاب معاً فى قلوب أهل الغرب جميعاً، حتى لقّبوه بـ «العظيم» أو «المُهاب» [Le magnifique - The Magnificent]. ولا غَـرْوَ! فلقد رفع سليمان الإمبراطورية العثمانية إلى ذروة القوة والمجد وهو يحكم بحكمة وقوة واقتدار من قلب مدينته الجاهزة على الدوام لقيادة العالم: استانبول أو القسطنطينية الشهيرة، التى أنشأها الإمبراطور قسطنطين الكبير قبل اثنى عشر قرناً عند ملتقى طرق أوروبا وآسيا.

وفى عام ٩٣٢ هـ ـ ١٥٢٥ م، كتب سفير ڤينا فى القسطنطينية يقول: «لست أعرف دولة أكثر هناءً ورفعة منٍ هذه، فهى تسيطر على مقادير الحرب والسلام مع الجميع، ثراؤها لا يحد، من الذهب والمال، من البشر ومن السفن، ومن الطاعة والخضوع، لا تشبهها على الإطلاق دولة.. فليحفظ الله إلى أبعد مدى هذا السلطان، أعدل الأباطرة والملوك»!

ولقد عمرّ «سليمان» فى الواقع طويلاً، سواء فى سنوات الحكم أو سنين العمر: إذ حكم إمبراطوريته ستة وأربعين عاماً متصلة، إلى أن بلغ سنِ الثانية والسبعين، وهى سنوات غمرتها الانتصارات الظافرة، وإن لم تَخْلُ من المآسى المحزنة.

على امتداد آلاف الأميال، شرقاً وغرباً، شمالا وجنوباً، تجولت جيوشه الظافرة المكتسحة، قاد هو معظمها، من الدانوب، إلى أوكرانيا، إلى النيل، ومن شواطىء المحيط الأطلنطى إلى سواحل الهند.

إن الذى تتاح له فرصة زيارة «طوبقابى» ـ قصر السلاطين الشهير فى استانبول ـ يشعر أثناء تجوله بأطياف «سليمان العظيم» فى كل ركن من أركان القصر. وقد يسعده الحظ، فيلْمس قفطانه الحريرى الذى كان يرتديه فى زهو، أو يتصفح ديوان شعره الذى خطه بيده على نحو مبدع، أو يطالع سجلات معاركه، وفيها تدوين ـ بقلمه ـ للوقائع يوماً بيوم! ولابد أن يضاف إليها رسوم وتصميمات مهندسه المعمارى الفذ «سنان»، الذى أبدع على مدى نصف قرن، العديد من المساجد، والحمامات، والجسور، والمستشفيات، والمدارس، والثكنات، والأسواق المغطاة، والقناطر، والقصور، فابتكر وشيد أكثر من أى معمارى عرف فى التاريخ!

ويطل على مدينة استانبول ـ من علٍ ـ ويرتفع نحو سمائها آلاف المآذن تدعو المؤمنين إلى الصلاة، مسجد سليمان المتسم بالجلال، وهو يمثل أسمى أحلامه.. وفى الحديقة الخلفية للمسجد، يرقد رفات السلطان المهاب، فى ضريح شيِّد من أجله، ودُفن فيه جثمانه.. دون قلبه!

كيف ؟.. سوى نرى!

فى عام ٨٤٠ هجرية (١٤٣٥ م)، أنهت القسطنطينية أحد عشر قرناً من عمرها كعاصمة للدولة البيزنطية، وبدأت عصراً جديداً بدخول رايات الإسلام الظافرة، لترتفع على أسوار المدينة، وتحف بموكب السلطان العثمانى محمد الفاتح، الجد الكبير ـ قدْراً ومكانة ـ لسليمان القانونى. وسرعان ما تحولت المدينة التاريخية إلى عاصمة للدولة العثمانية (وكانت من قبل فى مدينة بورسة)، فشهدت أضخم وأسرع عملية تجديد مدنى وحضارى حظيت به مدينة من قبل. الآن، أصبح على عرش قيصر، أحفاد قبائل الترك، ومنهم آل عثمان، الذين ينسبون إلى أول سلاطينهم «عثمان» مؤسس مملكة إسلامية قوية شديدة المَنعة، اقتطعها من حافة الدولة البيزنطية شمال غرب الأناضول. وعلى المسرح العالمى، ظهر هذا السلطان الفاتح المنتصر، يعلن فى قوة وحزم، أنه وريث كل الأراضى التى كان يحكمها أباطرة الرومان، ورحب به المؤرخون وكتاب الحوليات، باعتباره «الإسكندر الأكبر» الجديد.

لم تخمد قط جذوة الأمل البراق المؤرق، فى ذهن «الغازى» العثمانى الشجاع المنتصر، فى تكثيف الجهود، والإعداد المحكم، لتوحيد العالم تحت راية الإسلام الخضراء، ومن هنا، بدأت عربته الحربية فى التحرك الواثق المكتسح، تطوى فى مسيرتها الصرب، وبوسنيا (البوسنة)، واليونان، وألبانيا، ومولداڤيا، ولاشيا، وترانسلڤانيا، والقرم،

ودالماتيا، وكرواتيا. ومن فوق أبراج ڤينا، كان فى مقدور فرسان القديس مرقص أن يرقبوا ـ فى ذعر ـ على البعد، مشاعل الجنود العثمانيين الملتهبة ليلاً، تدفىء الأجساد، وتضئ الآمال، وتبتعث الحياة، وتطارد الموت، وتكشف للفاتحين معالم الطريق!

وارتعدت فرائص روما، فتململ «البابا» أرقاً فى فزع، وحالفه الحظ: إذ حال موت السلطان محمد الفاتح (٨٨٨ هجرية ـ ١٤٨١ م) دون دخوله العاصمة الإيطالية ـ كما تعود ـ فى موكب النصر تحت راية الإسلام. وكان قد أقسم لَـيَبنينَّ مسجداً ضخماً فى قلب روما.

جرت العادة أن يظل موت السلطان العثمانى فى طىّ الكتمان، لايكاد يعلمه إلا نفر قليل من الحاشية أو داخل القصر، إلى أن يتحدد السلطان الجديد فيعلن ذلك النبأ بنفسه وهو جالس على العرش فى مقر الحكم بعاصمة السلطنة، فإذا كان وريث العرش (ولى العهد) بعيداً عن العاصمة فى إحدى الغزوات أو الولايات (وكثيراً ما كان يحدث)، فإن عُمال البريد ـ أو حملة الرسائل ـ المتجهين إليه قد يضلون الطريق أو يُضَـلَّلون، ووزير السلطان الراحل قد يتآمر فيعمل على تولية من يحقق له مآربه، وأمراء الجيوش والقادة والجنود قد يعلنون العصيان ما لم يُسكتهم عل الفور بريق الذهب وموفور العطاء والمخصصات.

كان «سليمان» فى سن السابعة من عمره حين وطَّد الشاه

إسماعيل سلطة الأسرة الصفوية فى إيران، فتظل مصدر إرهاق وإزعاج له، معظم سنوات حكمه، ففارس (إيران) التى استمرت مناطق متنافرة مفككة لعدة قرون، أصبحت تحت حكم الصفويين دولة متماسكة متنامية فى التوسع والامتداد، يحكمها المذهب الشيعى، وهى تهدد جيرانها المسلمين. وفى عام ٩٢٠ هـ ـ ١٥١٤ م يغزو السلطان «سليم» أرض فارس ويدمر جيش الشاه إسماعيل فى «شالديران» ثم يخرب العاصمة تبريز، لكنه لم يغفل وهو يسوق الأسرى والغنائم، أن يحمل معه خيرة الفنانين والحرفيين، ومعهم أفضل التحف والأعمال الفنية، التى أصبح لها ـ فيما بعد ـ تأثير كبير على الفن العثمانى.

ثم استدار «سليم» نحو المماليك، الذين أثاروا المتاعب عند حدود الدولة العثمانية، فدارت المعارك الطاحنة قرب حلب وحول القاهرة، وانتهت بالقضاء النهائى على دولة المماليك وذبح «سليم» آخر سلاطينهم. وبهذا ضاعف من مساحة إمبراطوريته، فأصبحت تضم هلالاً ضخماً يحيط بشرق البحر المتوسط، ويمتد طرفه غرباً ليضيف إليه شواطىء شمال أفريقيا، وجنوباً ليحتوى سواحل البحر الأحمر.

الآن، يحتل العثمانيون موقع الصدارة من العالم الإسلامى، وقد أصبحوا قادة الإسلام بعد أن قبضوا على زمام السلطتين: الروحية والزمنية. غير أنهم احتملوا على أكتافهم عبء المواجهة مع شرّين خطيرين: الهراقطة أصحاب البدَع، والكفرة غير المؤمنين.

ووفرت مصر خيرات ومزايا كثيرة، فقد أصبحت صومعة الحبوب للإمبراطورية العثمانية مثلما كانت بالنسبة للإمبراطورية الرومانية، وهى ـ أى مصر ـ مصدر ثروات وأموال لا تنقطع، ومورد رئيسى بشرى لايُستهان بقيمته فى تجهيز الجيوش.

أدرك «سليمان» منذ صباه ذلك كله وشهد وقائعه وأحداثه. غير أن الحياة مع الأب، لم تكن دائماً على نحو هانىءٍ مريح، فقد تخللتها أيام قاسية كئيبة، حتى فى ترابزون، المدينة الشهيرة على البحر الأسود، التى ولد فيها «سليمان» عام (٩٠٠ هـ) ١٤٩٤ م عندما كان أبوه أميراً عليها.

ولما كبر الغلام وأصبح فى سن الشباب، رضخ لنظام التربية القاسى ليتدرب على أسلوب الحكم، واكتساب مهارة يدوية فى عملٍ من تلك الأعمال التى يحترفها الصُّنَّاع والعامة من الناس. فاختار أن يتقن كتابة الخطوط وصياغة المعادن النفيسة، فأسلموه إلى صائغ مجوهرات يونانى فظ يدعى قسطنطين، وقبل سن النضج واكتمال الخبرة والنمو، فرض عليه أبوه أن يخرج معه مقاتلاً فى حرب القِرم، وحين يئوب سالماً من المعارك إلى استانبول، يقيم فى قصر «باخشى سراى» مقر السلطان وعاهل السلطنة، بنظام الحياة فيه الضاغط العبوس، والأم، حفصة، أميرة شديدة السيطرة والمراس، عيناها دائماً نحو الابن، وتأثيرها عليه شديد، إذ لا يكاد يشعر بوجود الأب، لأنه مشغول على الدوام

فى الحروب والنزاع على وراثة المُلك، فلما اعتلى «سليم» العرش، أفلحت الأم فى انتزاع موافقة الأب على أن يكون «سليمان» حاكماً لإقليم «مانيزا» الخصب، المطل على بحر إيجه، ومن هناك، اشترت له جاريتين چركسيتين أهدتهما إليه، إحداهما «جولبهار» ـ ومعناها وردة الربيع ـ استأثرت بقلبه، وحظيت بكل هواه، خاصة بعد أن أنجبت له «مصطفى».

وفى مانيزا، ظلت عين سليمان مفتحة على الدوام، مثلما ظلت «العيون» ترقبه من قريب وترصده من بعيد: عيون الأب، والأم، ورجالهما أو نسائهما المدسوسين عليه، وعيون زوجات الأب ومحظياته وجواسيسهن، والمشتركين معهن ـ من الحاشية ـ فى مؤامرات الوراثة ومشاكسات الأسرة.

حقّـا هو أمير يَحْكم فى إقليمه الصغير. لكنه ـ فى نظر الأب ـ مازال غلاماً غـرّاً صغيراً، عليه أن يَخضع لإشراف معلمه، ويلتزم بتوجيهاته ووصاياه: فالأمير العثمانى ـ كما يقضى العرف ـ لابد أن يجيد حفظ ودراسة القرآن الكريم، والتاريخ، وسياسة الحكم، والعلوم، والفلك، والشعر، فعكف الأمير على دراسة ذلك كله وإجادته، وبذل جهداً كبيراً موفقاً فى كتابة الخطوط، حتى صار من أفضل الذين يكتبون ويزخرفون. وساعده على التفوق والإقبال على الدراسة والتعلم، فتى يقال له «إبراهيم»، واحد من أتباعه الذين تضمهم حاشيته الصغيرة.

ومن العسير أن نَتَخَيَّل مقدار وعمق الصداقة الوطيدة التى ربطت بين سليمان وإبراهيم، برغم التباين الشديد بين جذور ونشأة كل منهما. فإبراهيم ابن صياد أسماك، حمله الغزاة الأتراك بين الغنائم التى جلبوها معهم من غرب اليونان. فتعلم فى بيت من بيوت الأثرياء فى مانيزا، واعتنق الإسلام، ثم التحق بالخدمة فى قصر الحاكم، سليمان، وأظهر تفوقاً ملحوظاً بسبب إجادته الوافرة لبضع لغات. ولذكائه، وجاذبيته، سرعان ما توثقت العلاقة والصداقة المتينة بين ابن السلطان وابن السماك، فهما لا يكادان يفترقان: فى حلبة المصارعة يتنافسان، وفى ساحة الفروسية بالسيف يتبارزان، وبالسهام يتدافعان، وبالخيل يتسابقان، وعلى المائدة يأكلان. فإذا ما فرغا، يجلسان لساعات طوال فى مناقشة موضوع كتاب أو مطارحة الشعر، وإذا ما جَن الليل، أصغى سليمان إلى عزف إبراهيم على الكمان!

يأتى البريد مسرعاً إلى مانيزا عام ١٥٢٠، يحمل من استنابول النبأ الكبير: مات السلطان سليم.

ينطلق سليمان على فرسه يطوى الأرض ثلاثة أيام متواصلة، إلى أن يبلغ شاطىء البوسفور، فيستقبله الناس فى العاصمة بكل المهابة والإجلال. وعند قدميه، وأمام قصره، تلتقى مياه أنهار الدانوب، والدنيبر، والدون، قادمة من الأراضى والسهول الفسيحة التى يمتد فوقها ظل السلطان. هنا، عند بحر مرمرة، يتضاغط الماضى، ويمد فى قنوات

الاتصال بين ملاحم طروادة، وأحلام جاليبولى، عبر الدردنيل وبحر إيجه، ثم تمتزج بمياه البحر المتوسط الذى يطمح سليمان أن يجعله بحيرة عثمانية.

وترنو عينا «سليمان» نحو التلال المنحدرة، تغطيها مساكن متراصة متماسكة، تأوى عائلات متجاورة من المسلمين والمسيحيين واليهود، جَمَعَهم جَدُّه الكبير من أرجاء إمبراطوريته. منهم المسلمون واليهود الأسبان الذين طردهم معاً فرديناند وإيزابيلا، جاءوا آمنين بالإقامة هنا فى جوار الأتراك واليونانيين والأرمن، وشاركوا فى نشاط التجارة والأسواق المغطاة، لاخوفَ ولاحَرج، فقد أباح السلطان للمسيحيين ولليهود ممارسة شعائرهم الدينية، واتباع تقاليدهم وطقوسهم وشرائعهم، مقابل جزية بسيطة (ضريبة الدفاع) تعفيهم من الالتحاق بالخدمة العسكرية، والاشتراك فى الجهاد والحروب.

أدرك العثمانيون بوضوح ذلك البَوْن الشاسع بين شطرى العالم آنذاك: مملكة (أو دار) الحرب التى تحف بأرض السلطان الغازى، ولا يكف أبداً عن ردع عدوانها وتمردها. ومملكة (أو دار) السلام، التى تعيش فيها ـ متجاورة ـ كل الأجناس والأديان، تحت ظل السلطان وعدله. بهذا المفهوم المتنامى الإيمانى السديد، ازدهرت واتسعت طرق ومدينة التقاء قارات العالم، فظلت تنمو وتقوى وتتسع إلى درجة لم تجرؤ معها أية عاصمة أوروبية أن تنال منها أو تعتدى عليها، حتى نهاية القرن التاسع عشر.

وعند رأس «القرن الذهبى»، وبين أشجار السَّرْو الباسقة، يبرز مسجد بسيط البناء، لكنه جليل القَدْر، إنه أحد الأماكن ذات القيمة الرفيعة داخل العالم الإسلامى كله، فهو يضم رُفات أبى أيوب الأنصارى، الصحابى الجليل (الذى نزل النبى صلى الله عليه وسلم فى بيته عقب هجرته إلى المدينة وظل مقيماً معه حتى ابتنى له بيتاً (حجرة) فى جدار المسجد النبوى)، الذى يُعتبر مثالاً للدعاة المجاهدين المسلمين. وقد اشترك فى أول حصار لمدينة القسطنطينية (سنة ٥٠ هجرية ٦٧٠ م) واستُشهد عند أسوار المدينة، وصفوف المصلين فى هذا المسجد لا تكاد تنقطع. هنا، فى هذا المسجد تسلم «سليمان» بعد موت أبيه بثمانية أيام سيف عثمان، فى ذاك اليوم، أُصبح اسم السلطان المهاب يُذكر فى خطبة الجمعة بكل مسجد، ويُنقش على العملة، وهو إذ يتسلم زمام السلطة المطلقة، وحق إهدار دم أى فرد من رعاياه، فى تلك اللحظة، لم يغفل عن طنين الجماهير التى احتشدت فى طريقه من مسجد أبى أيوب إلى القصر تهتف فى إنشاد دينى: «أيها السلطان لا تغتَرّ، فإن الله أقوى وأكبر» .!

وبدأ أعمال سلطته الرسمية على الفور، فأمر ببناء ضريح، ومسجد، ومدرسة تحمل اسم والده، وأطلق سراح ألف وخمسمائة أسير مصرى وفارسى، وعوّض التجار عن البضائع التى كان صادرها أبوه سليم، وعاقب بصرامة شديدة اللصوص والمعتدين على الحرمات، فسرعان

مـــا أقبل عليه الناس وأحبوه، وعرفوا فيه الصلاح وحُسن الخلق، والشجاعة والعدل.

كتب أحد المراقبين السياسيين حين ذاك يقول: «يبدو للجميع أن حَمَلاً وديعاً قد خَلَف سبْعاً ضارياً».

لم يَمْضِ وقت طويل، حتى أظْهر الحَمَل أنه يُخفى فى إهابه أسداً فاتكاً، فحين رفع أحد الباشوات فى الشام راية العصيان، أنزل السلطان به عقوبة وحشية قاسية. ثم اتجه سليمان نحو الغرب، ليحقق مثل ماحققه أبوه فى الشرق. وفى أولى غزواته، والتالية لها، أفلح فى إنجاز ماعجز عنه جده محمد الفاتح!

وفى ربيع سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢١ م)، يبدأ سليمان حملته الأولى لغزو أوروبا، فى ذات الوقت الذى وقف فيه «مارتن لوثر» ضد شارل الخامس فى المجلس التشريعى مطالباً بالإصلاح. وتسقط بلجراد ـ همزة الوصل بين مقاطعات الدانوب ومفتاح البلقان ـ تستسلم بعد أسبوع واحد من القصف والهجوم المكثف فى عشرين حشداً متتابعاً.

وفى الصيف التالى يحاصر رودس ـ الجزيرة الشوكة فى زاوية آسيا الصغرى من الجنوب الغربى، والحصن الحصين لفرسان القديس يوحنا (چون). إنها تقف عائقاً بين عاصمته ومصر، وأسطولها يعترض بين الحين والحين سفن الحبوب المتجهة شمالاً نحو تركيا، كما يضايق سفن الحُجاج إلى بيت الله المعظم فى مكة المكرمة، وتصدر

الأوامر، فتخرج على الفور ثلاثمائة سفينة من «القرن الذهبى» تتجه نحو ميناء الجزيرة «المقدسة»، فى حين يمضى «سليمان» يقود جيشه المكون من مائة ألف مقاتل، يخترق اليابسة، ثم تحملهم سفن أخرى إلى الجزيرة، ليحكم حصاره الشديد عليها فى التاسع والعشرين من يوليو.

ويمضى الصيف يتبعه الشتاء، والفرسان داخل الجزيرة ـ ومعهم الجنود المرتزقة المسلحون ـ يستميتون فى مقاومة الحصار، فيحفر الأتراك الخنادق لتقترب ثم تقترب من أسوار قلعة الميناء، وتتحرك المدافع المهلكة صَوْب المدينة، وتدوى الانفجارات، وينطلق المهاجمون فى موجات عاصفة عاتية، فيسد المدافعون عن الجزيرة بأجسامهم الثغرات التى أحدثتها القذائف فى الأسوار.

بعد مائة وخمسين يوماً من المقاومة والضغط والدفاع، يتوقف النزال، فيخيم الصمت، لقد أخضع «سليمان» لسلطانه أكثر مدن العالم المسيحى كله تحصيناً ومقاومة، لكنه يُظهر كرماً وسماحة وهو فى قمة انتصاره عندما قال: يستطيع الفرسان والمرتزقة أن يغادروا الجزيرة فى أمان ـ وبلا عقاب ولا مذلة ـ خلال اثنى عشر يوماً، وكل من يرغب فى الرحيل من المواطنين المدنيين يستطيع أن يفعل ذلك ـ بلا إكراه لو أراد ـ خلال ثلاث سنوات مع إعفائهم جميعاً من دفع الجزية. فينال «سليمان» إعجاب أوروبا بأسرها، لشهامته وحُسن

معاملته، لكنه لم يقدِّر الأمر حق قَدْره، حين سمح للفرسان بمغادرة الجزيرة بسلام، إذ أَن هذا النُّبل سوف يكلفه ـ فيما بعد ـ ثمناً باهظاً!

ويُبحر فرسان القديس يوحنا إلى جزيرة رودس، ومعهم قائدهم «دوڤالييه» ، ثم يغادرونها بعد ثمانِ سنوات إلى وطن أكثر دواماً: مالطة. لكن «السلطان» لا يريد أن يتوقفَ التاريخ عند مجرد الهزيمة والانتصار. فهو يضيف موقفاً إنسانيّـا يعلو فوق الغَلَبة ونشوة الفوز، فيطلب أن يرى «دوڤالييه» قبل رحيله عن الجزيرة، فيمتدح دفاعه الباسل، ويمنحه هدايا ثمينةً. وبعد أن ينصرف، يقول لوزيره إبراهيم: «أليس من المؤسف حقّـا أن نُضطر إلى إرغام هذا المسيحى الشجاع على مغادرة وطنه وممتلكاته وهو فى شيخوخته»[1]!

الآن، يستطيع «سليمان» أن يستريح قليلا. فهو آمِنٌ من ناحية الغرب، بعد أن استولى على معاقل التهديد بالمجر، فى ساباكس وبلجراد. وهو أكثر أمناً واستقراراً من ناحية الشرق، بعد أن حوّل شرق البحر المتوسطِ إلى بحيرة تركية تطمئن فى مياهها سفن الحُجاج والتجارة فى غُدوٍّ ورواح. لكن وقت الراحة لا يطول!

موهاك:

موقع يثير الوجدان والأشجان. إنه مكان مجاور لنهر الدانوب. ينحدر

(١) هذا الاضطرار (الاستراتيجى كما نقول اليوم) عبّر عنه المؤرخ البريطانى المشهور «بيرى J.B. Bury» فقال: «كان من مصلحة النظام العام حين ذاك أن تُضم جزيرة رودس إلى الأتراك».

من ناحية الجنوب صوْب السهول العشبية المجرية، قبل أن ينحرف في اتجاه الشرق مُيمماً شَطْر البحر الأسود.

هنا.. في هذا الموقع، دارت معركة عنيفة، قُتل فيها ملك شاب ومعه كل نبلائه تقريباً، عندما واجهت الفروسية التقليدية آلات الحرب الحديثة، في أوائل سنة ٩٣٣ هـ (أغسطس ١٥٢٦م).

قالوا عنه: «سريعاً وُلد، وسريعاً تزوج، وسريعاً تملّك، وسريعاً جدا مات»!

فقد وُلد لويس الثاني ـ ملك المجر ـ قبل اكتمال شهور الحمل، ثم أصبح ملكاً قبل أن يبلغ سن العاشرة، وبعد خمس سنوات تزوج شقيقة الإمبراطور شارل الخامس (ملك أسبانيا) والأرشيدوق فرديناند حاكم النمسا، وفي بلاطه، كان محاطاً بجماعة من النبلاء يغلب عليهم ـ مثله ـ التهور والحدة والخيلاء، فكانوا أقرب إلى البطش وسفك الدماء، منهم إلى الحنكة والحكمة واصطناع الدهاء، وبلغ من حماقتهم وجبروتهم أنهم كانوا أحياناً في الصيد، يتخذون أرقّاءَهم هدفاً إذا ما فشلوا في صيد الحيوان! فكان أمل هؤلاء التعساء، أن يخلصهم جيرانهم الأتراك من هذا الظلم المشين، وقد تحقق هذا الأمل بفضل حماقة ملكهم الغرير، الذى سوّلت له نفسه أن يسيء استقبال رسول من قبل «سليمان» العظيم.. المهاب!

فما أن بلغ «سليمان» ما فعله ذاك الملك، حتى نهض على الفور

ممتشقاً حسامه، ومن ورائه جيشٌ عَـرِمٌ غاضب، متحفز مشوق للحرب. لقد كان ينتظر تلك اللحظة ـ على مضض ـ نحو ثلاث سنين، منذ انتصاره في حرب رودس، وزاد من حماس الجيش، أن علماء الإسلام بالسلطنة أعلنوا أنها حرب مقدسة ترد الإهانة، وتؤدب المتطاولين على هيبة سلطان المسلمين(١)!

وفي الطريق، يتلقى السلطان «سليمان» كتاباً من فرانسوا الأول ـ ملك فرنسا ـ ورسالة أُخرى من شارل الخامس ـ إمبراطور أسبانيا ـ يطلبان منه الإسراع إلى نجدة ملك فرنسا ـ ! ـ بالمضى قُدما إلى مقاتلة ملك المجر، وتحرير الأراضى والشعوب الخاضعة له (ومنها أهالى الصرب وكرواتيا والبوسنة والهرسك).

وعلى الجانب الآخر، يستشيط بابا روما «كليمنت السابع» غيظاً أو فزعاً، فيحث الحكومات المسيحية على الإسراع لمؤازرة الدولة المهددة، في حين ينصح «لوثر» الأمراء البروتستانت أن يلزموا أوطانهم لأنه «من الواضح بلا مراء ـ هكذا قال ـ أن الأتراك وافدون من عند الله، ومن ثَم، فإن مقاومتهم هى جحود وعصيان لله».

يخرج «سليمان» من استنابول، تحفّ به فِرق «الجانيسارى» الشديدة البأس، لا ينتظر مَقْدم كتائب الفرسان من البلقان، فتلحق به على

---

(١) نفس هذا الموقف حدث من قبل مع الخليفة المجاهد الشجاع هارون الرشيد ـ ولنتأمل حال المسلمين ـ للأسف أو للأسى ـ بين الأمس واليوم!

عجل، وتُبحر السفن مصعّدة فى نهر الدانوب محملة بالمدفعية الثقيلة، وعندما يعبر حدود المجر، يكون جيشه قد بلغ ثمانين ألفاً من الرجال الأشداء الشجعان، يتْبعهم آلافٌ من الإبل والدواب والعربات، تحمل المؤن والذخيرة، ومن البارود ما يكفى لتغذية ثلاثمائة من أقوى المدافع فى ذلك العصر، وفريق من خيرة المهندسين يقيمون الجسور (الكبارى) فى لمح البصر، فلا يتوقف الجيش عن مواصلة المسير، ثم يسبقونه بمعدّاتهم نحو الحصون المجرية المقامة على امتداد الدانوب، فيبنون المواقع التى ستحتمى بها مدافع الجيش الزاحف، عندما تطلق قذائفها الغاضبة فتدك الأسوار وتحطم القلاع.

يتقدم الجيش كالجراد المنتشر! فى طليعته: «الأكينْسى» أو الخيالة الخفيفة والكشافة، وغالبيتهم من حملة الرماح، ومعهم الأدلاَّء يلبسون زيّا من جلد الفهد وأغطية الرأس المجنحة، فيثير منظرهم الرعب فى النفوس، وهؤلاء، لا رواتب لهم أو أعطيات مثل بقية أفراد الجيش، وإنما يؤجَرون من الغنائم والأسرى بعد المعركة، ومن مهامّهم المنوطة بهم إلقاء الرعب فى قلوب سكان القرى والمدن التى يمرون بها، فيرى الناس على البعد سحائب الدخان وألْسِنَةَ الحرائق التى يشعلونها فيفزعون ويفرّون.

أما فِرَق الفرسان النظامية، فتسمى «سيباهى»، أى الفرسان المنتظمون المحترفونَ، الذين لم ينالوا هذا الشرف ـ فى استرخاء ـ عن طريق

الميراث، وإنما اختارهم السلطان وأعدّهم للخدمة العسكرية. إنهم مهرة في استخدام عدة أدوات فى القتال العنيف: السلاسل، والسيوف، والرماح، والخناجر، والدبابيس، والحراب.

وفى وسط الجيش، تمشى فرق «الچانيسارى» مسلحة بالبنادق، والسيوف، وترتدى الأقنعة المعدنية أو تحمل الدروع، وهم رجال أقوياء، لهم شوارب كثّة، يثير مرآهم الرعب من غير قتال!

وأين «سليمان» ؟!..

فوق جواده العربى الأصيل، وهو الوحيد بين خيول الجيش كله ذو اللون الأسود، مطهّم بالذهب يعلوه السلطان بعمامته البيضاء الناصعة، فى ردائه المزين بالجواهر، تحيط به كوكبة من الحاشية وفرسان الحرس السلطانى، يرفعون عالياً راية السلطان، تتدلى من ساريتها شارة «سليمان المنتصر»، وهى مكونة من ذيول سبعة خيول قَتَلَ السلطانُ ـ من قبل ـ من كان يركبها من ملوك أو أُمراء أو قادة، إنها راية تعلو كل الرايات والبنود (الأعلام) ـ وخلف السلطان ـ على مقربة ـ يبدو إبراهيم ـ الوزير الأكبر ـ على فرسه وهو فى سَمت المقاتل الشجاع.

لعل أكثر الفِرق إثارة فى هذا الموكب المهاب، فرقة «المِهْتَر»، أو الموسيقى العسكرية. تضم عدداً كبيراً من النقّارات (الطبلِ الكبير) المدوية، والصِّنج النحاسية الصاخبة الصوت، وآلات النفخ الحادة النّغمات، يشبه صوتها زئير المزمار الغاضب، وقد جاء فى وصف أحد

المعاصرين: «عند مرور تلك الفرقة الموسيقية، وآلاتها كلها تعزف معاً، فإن ضجيجها الضاغط المدوى يوشك أن يدفع بمخّ من يسمعها لينزلق من فمه»!

هذا التجديد الذى ابتدعه العثمانيون، بتكوين فرقة مشاة الموسيقى العسكرية، كان أداة فعالة من أدوات إثارة الرعب عند الهجوم، وإشاعة الفزع والرهبة عند استعراض الجيش فى المدن المفتوحة أو المستسلمة.

لم يكتم المراقبون إعجابهم المفرط بالنظام الدقيق والالتزام المطلق طوال مسيرة جيش السلطان: «لا يُـرَوِّعَن أحد من الجند رعايا السلطان خاصة المزارعين والفلاحين، ولا يَـتْلفنّ لأحدهم محصولاً أو زرعاً، ولا يسرق دجاجاً أو خرافاً». وفى الحق، لم يحدث من ذلك المنهى عنه شىء قط!

طالت مسيرة «سليمان» بجيشه العظيم، وتعجب السلطان، إذ لم يعترض تقدمه جندى واحد من جيش المجر بعد أن عبر نهر الساف! غير أن خطة المجريين كانت ترمى إلى اختيارهم سهل «موهاك» ـ أو موهاكس ـ مسرحاً للمعركة، حيث يتيح لفرسانهم ـ فى زعمهم ـ قدرة على التفوق والسيطرة.

وصل جيش «سليمان» إلى موهاك، بعد مسيرة ١٢٨ يوماً بعد أن قطع مسافة تبلغ نحو ٩٣٠ ميلاً، بمعدل سبعة أميال ونصف كل يوم، سواء كان الجو صحواً أو ممطراً، ولما كان المطر غزيراً، فقد تحولت أرض

«موهاك» إلى تربة إسفنجية مشبعة بالمياه.

وقطع الملك لويس بجيشه الملكى غير المنظم، المسافة من عاصمته المجرية «بودا» إلى موهاك فى ثمانية وثلاثين يوماً، بعد مسيرة شاقة طوال مائة وخمسة أميال، فى جيش مكوّن من عشرين ألفا من مختلف الجنود، ثم لحقت به فرق يقودها «جون زابوليا» ذو الشخصية العسكرية الجذابة. غير أن النبلاء من الحاشية، وقد نهشتهم الثقة المفرطة، تنازعوا فيما بينهم على مناصب القيادة، ولم يكن لديهم صبر ولا روية، فتعجلوا الدخول فى المعركة، ثم داخلهم الزهو وهم يركضون بخيولهم المطهّمة، ويضعون الدروع الذهبية البراقة، والقلانس المزينة بالريش الناعم، فكانوا على يقين من أن شجاعتهم سوف تجعل هذا اليوم يومهم بلا منازع، وإن كان جيشهم فى العدد أقل من الثلث.

فى التاسع والعشرين من أغسطس..

فى الثالثة عصراً...

انطلق العثمانيون من داخل غابة كثيفة تواروْا داخلها: جنود الأناضول فى الميمنة، وجنود «الروملى» ـ البلقان ـ فى الميْسَرة، وجنود «الآكينسى» فى المقدمة لحماية كلا الجناحين. فى موقع متوسط إلى الخَلْف، وقف سليمان يُصدر الأوامر من مركز القيادة.

اندفع الفرسان المجريون نحو الأرض المشبعَة بالماء. فتراجعت قليلا فرق الأناضول والروملّى (الميمنة والميسرة) متظاهرة بأنها فزعت من المباغتة. فمضى المجريون فى اندفاعهم المنتشى بالجيش كله، ثم فجأة، تبينوا أنهم وقعوا فى شراك مصيدة، إذ أطبق عليهم الجناحان العثمانيان!

فى هذه الأثناء، كان ثلاثون من الفرسان المجريين قد أقسموا أن يحزُّوا رأس السلطان أو يموتوا معاً موتة رجل واحد، فاتجهوا مسرعين نحوه، وأصاب أحد رماحهم درع السلطان، واستطاع ثلاثة منهم أن يتقربوا منه، إلا أنه عاجلهم فأجهز على ثلاثتهم بسيفه فى لمح البصر (وتلك شهادة المؤرخين الغربيين) فسقطوا ممزقين تحت أقدامه، وأصيب هو بجرح بسيط.

وسرعان ما تجمع جنود «الإنكشارى» وأحاطوا به فى كتل متراصة، وأخذوا يطلقون سيلاً من النيران والرماح فى دفعات متلاحقة، فرقة من وراء فرقة، هذه تُطْلق، والأخرى تعبىء سلاحها ثم تتْبعها. وعندما صار الجيش المجرى كله محاصراً من كل جانب يتلقى الضربات العثمانية الفاتكة، عاد الجناحان العثمانيان مرة أخرى ـ بتعليمات القيادة ـ إلى الإنفراج قليلاً بعيداً عن جيش المجر. وفى الحال، انطلقت المدافع العثمانية تفتح نيرانها فى خط واحد باتجاه المجريين، مجموعة ناسفة من القذائف إثر مجموعة، بنفس النظام والتوقيت السابقين، فلما توقفت حمم نيرانها ودويها المفزع، أسرع جناحا الأناضول والروملّى نحو من

بقى من جيش المجريين المطحونين، يُعملون فيهم السيوف حتى أجهزوا عليهم ومزقوهم شر ممزق، والذين حاولوا الفرار بجلدهم، اعترضتهم فرق المؤخرة.

الساعة الخامسة:

بعد ساعتين اثنتين فقط.. كان كل شيء قد انتهى، وحُسمت المعركة!

فى صباح اليوم التالى، عُثر على جسد الملك لويس: لما حاول الفرار، انزلق فرسه من فوق حافة منحدر، فتدحرج به نحو مجرى مائى غير عميق، وقد تعرفوا عليه من درعه الذهبى الثقيل، لأن وجهه كان مطموراً فى الطين! وعندما أُبلغ «سليمان» بمصير الملك قال: «فليرحمه الله! ولينْزل غضبه على أولئك الذين أساءوا توجيهه واستغلوا بخبث نقص كفاءته وخبرته. لا شك فى أننى جئت مضطراً لمقاتلته بالسلاح، لكننى ما كنت أرغب أن يمزَّق على هذا النحو، وهو لم يكد يتذوق حلاوة الحياة وطعم المُلْك».

أفاقت أوروبا على دوىّ الصدى القادم إليها من «موهاك»، وحسبَتْه غضب الله عليها وسخطه. فها هى المجر قد ولَّت، ولسوف تتبعها على الأرجح النمسا، ثم ألمانيا. وتنبه مارتن لوثر، الذى تثبتت جذور دعوته من قبل بفضل زعزعة الأتراك لكيان الدولة الرومانية. فكثيراً ما كان يقول: «إن محاربة الأتراك عصيان لإرادة الله، لأنه يعاقبنا

على ما اقترفنا من آثام». الآن، وبعد «موهاك» يدعو ـ لوثر نفسه ـ إلى الحرب المقدسة ويستحث كل أمير فى أوروبا أن يسرع ليكون ظهيراً للإمبراطور ـ الأسبانى ـ فى دفاعه عن مملكة المسيح[1]!

ڤيينا (عاصمة النمسا):

اسم متعدد الأبعاد والآفاق فى التاريخ، والفن، والأدب، والفروسية، والحضارة الإنسانية. إذا أتيح لك أن تصعد إلى قمة برج كاتدرائية «سان ستيڤن» وتنظر من ارتفاع أربعمائة وخمسين قدماً، فسوف ترقب حركة ساكنى المدينة العريقة من هذا الارتفاع الشاهق، فإذا اتجهت ببصرك نحو شارع «رينج شتراسى» الذى يخترق الأحياء الداخلية القديمة، فتذكر حينئذ أن أسطح البيوت فى هذا الموقع كانت فى يوم ما من عام ٩٣٦ هـ (١٥٢٩ م) بحراً أبيض اللون مكوّناً من خيام الأتراك المنتشرة حول أسوار ڤيينا آن ذاك، فإذا ما نزلتَ وتجولت فى هذا الشارع وعبَرْت المتاجر العتيقة وما يجاورها من مطاعم شهيرة مثل «كيلير» و «رڤينستوبن» والمقاهى.. طالعتك نفحات ـ أو زفرات ـ التاريخ، وترجيع أصداء حفيف الرايات والأعلام التركية ذات الهلال الكبير.

---

(١) يعقب «بروكلمان» على «موهاك» بقوله: كانت موهاك هزيمة أدبية ومادية معاً للعالم المسيحى. وابتهج اللوثريون (البروتستانت) بفوز الأتراك، ونهب جيش الإمبراطور شارل مدينة روما.

كان هدف الأتراك اقتحام «البوابة الكرنثية» وهى الآن فى نهاية الشارع، ونجحوا بالفعل فى إحداث ثغرة بها بعد هجوم متلاحق، لكنهم لم يتمكنوا قط من دخول المدينة. وفى موقع هذه الثغرة تقف اليوم دار الأوبرا بالمدينة، وكأنما قُـدِّر لهذا المكان أن يظل عمره كله يشهد التدافع والزحام! فجمهور الأوبرا المتضاغط يجد مشقة على الدوام فى الحصول على تذاكر الحفلات المحدودة العدد!

كان العدو اللدود للسلطان سليمان: الطقس، فالأمطار الغزيرة المتواصلة كلَّفته ١٤١ يوماً للوصول إلى عتبات ڤيينا. واضطر فى مسيرته الشاقة، أن يخلِّف وراءه العديد من البنادق والأسلحة ملقاه فى الوحل، لقد أحكم الحصار حول المدينة، لكنه أدرك أن جيشه فقد كثيراً من معداته، وأن الجنود داخلَهم الوهَن، وبعد أقل من ثلاثة أسابيع ينسحب جيش الأتراك تحت وطأة الثلوج المتراكمة. ثم ضاعف من خطر الموقف، اقتراب الشتاء القاسى وهلاك مئات الفرسان والخيول والإبل.

ابتعد شبح الغزو العثمانى التركى عن ڤيينا، لكنه لم ينقشع تماماً. إذ يعود «سليمان» بعد ثلاث سنوات محاولاً اقتحام المدينة بجيش أكبر وعتاد أوفر، لكن وصوله إلى ڤيينا تأخر عن موعده المقدر، حيث اضطر وهو فى الطريق إليها أن يقضى معظم شهر أغسطس فى حصار لقلعة «جونس» القريبة من الحدود المجرية النمساوية.

مرة أخرى يتأخر التوقيت، ويقترب موسم الشتاء المؤلم المعوّق، إلا أن «سليمان» ـ وقد خرج فى تلك الغزوة متحدياً الإمبراطور شارل ملك أسبانيا، فكر فى إغرائه بالخروج من مدينة «ريچينسبرج» فى باڤاريا، فيلتقى الجيشان.

لكن شارل ـ كما يخبرنا سفيره «أوچيير» ـ كان «قد اكتسب مع الأيام من دروس الحكمة ما جعله يوافق على رأى أخيه «فرديناند» بعدم المخاطرة والسعى إلى التهلكة لمجرد إرضاء غرور النفس، فما زالت معالم الدمار التى خلّفتها جيوش العثمانيين فى ڤارنا وفى نكوبوليس قائمة محذّرة، وما زالت سهول موهاك تتّشح بالبياض من تكدس جماجم وعظام الذين ذبحوا وقتّلوا على أرضها تقتيلا». أما «بروكلمان» فيؤكد: «لم يحظ سليمان بفريسته حيث جبن شارل وبقى محتمياً خلف أسوار المدينة المحصنة تحصيناً هائلاً، ورفض أن يخرج للقتال فى أرض مكشوفة، وانصرف «السلطان»، لسبب وحيد: البرد والجليد، ودمر فى طريقه جزءاً كبيراً من النمسا، وحمل الغنائم، وقد بلغه أنه الأسطول التركى اشتبك فى الجنوب مع أسطول «أندريا دوريا» عند شاطىء البلوبينير».

ولما أرسل فرديناند مبعوثاً يطلب الصلح، رحب به «سليمان»، وأبلغه أنه يعقد الصلح إلى الأبد إذا لم ينقضه فرديناند نفسه، وأنه سوف يعامل فرديناند كابن له، لكنه طلب ثمناً فادحاً، وهو أنه ينبغى على فرديناند أن يرسل له مفاتيح مدينة «جراو» رمزاً للخضوع والولاء، وكان فرديناند وشارل متلهفين على تحرير أسلحتهما وتوجيهها ضد المسيحيين

(المنشقين)، إلى حد أنهما كانا على استعداد لتقديم بعض التنازلات للأتراك. فأرسل فرديناند مفاتيح المدينة، وأطلق على نفسه «ابن سليمان»، واعترف بسيادة «السلطان» على معظم أراضى المجر فى يونيو عام ١٥٣٥ م (سنة ٩٤٢ هـ) واسترد السلطان مدن الجنوب المغتصبة، وراوده حلم بسط سلطانه على «ڤيينا» و «تبريز»..

لقد كان «السلطان» ـ سليمان ـ أحكم رأياً وأبعد نظراً من الإمبراطور نابليون بونابرت الذى أباد الصقيع معظم جيشه عند أسوار موسكو ـ فيما بعد ـ بدون أن يكسب شيئاً، ولم يأخذ الدرس من سلطان المسلمين.

فى أطلال قلعة قديمة بمدينة «ريجنيسبرج» ما زال هناك حجر مستدير، مثير للمشاعر، منقوش عليه كلمات تثير ابتهال كوامن الأسى فى النفس من عهد شارلمان، هذه الكلمات هى: «غزا الأتراك هذا المكان أعوام ١٤٨٠، ١٥٢٩، ١٥٣٢»!.

وجاء فى مذكرات السفير «أوجيير»: «انقضّت جيوش السلطان مثل الرعد القاصف، تضرب، وتحطم، وتدمر كل شىء تصادفه فى طريقها، ولم يوقفها إلا جيوش الفرس التى هجمت من الشرق لنجدتنا[1] فأسرع الأتراك بالعودة لمواجهة الخطر الذى جاء يتهددهم».

---

(١) يفسر «ديورانت» فى موسوعته «قصة الحضارة»: كتب السفير لفرديناند فى القسطنطينية يقول: «إن فارس هى التى تقف حائلاً بيننا وبين الدمار» وقُدمت الرشوة بسخاء إلى القواد الفرس.

ونمضى سراعاً مع «سليمان» متجاوزين ـ اضطراراً حتى لا يمل القارىء ـ كثيراً من الوقائع والأحداث، من أبرزها فتوحات وانتصارات قائده البحرى للأسطول العثمانى فى البحر المتوسط: «خير الدين برباروسا» ـ أى ذى اللحية الحمراء ـ الذى أمّن طرق الحجاج وتجارة المسلمين من شمال أفريقيا إلى الشرق، والذى هزم أسطول الأسبان فى الجزائر وأجبر جنوده وبحارته «الأسبان» على بناء ميناء الجزائر طوعاً أو كرهاً! وأنقذ بسفنه العثمانية عشرات الآلاف من مسلمى أسبانيا الذين فروا أو طردهم التعصب الأعمى ومحاكم التفتيش من ديارهم واستلب أموالهم واغتصب نساءهم، وهو برباروسا الشجاع الفذ الذى استولى على مدينة نيس وفيلفرانش الفرنسيتين الشهيرتين، والذى طلب ـ فأجيب ـ أن «تكف أجراس الكنيسة عن الدق طالما كانت سفن الله (أى سفن أسطوله) فى الموانىء الفرنسية، لأن أصواتها تقضّ مضجعه! ثم هو الذى أطلق الغربيون عليه اسم: سيد البحار، بعد أن ارتعدت العاصمة الإيطالية روما فَرَقاً حين أغار على كالابريا ونزل فى أوستيا ثغر العاصمة، وفرض صلحاً على البندقية (ڤينيسيا) وأخذ ممتلكاتها فى بحر إيجه واليونان، واستولى على صقلية، وضم تونس إلى الدولة العثمانية، وبلغ من الرعب الذى أنزله فى نفوس الأوروبيين، أن الأمهات فى ذلك الوقت ـ الأوروبيات ـ كنّ يخفن صغارهن إذا أضجرنهن أو عصينهن، فتقول إحداهما لطفلها: «إذا لم تتأدب، فسوف أُخبر عنك بارباروسا»!

كما نتجاوز ـ مسرعين ـ معارك «سليمان» مع الشاه الفارسى

طاهْماسب (ابن الشاه إسماعيل الصفوى) التى استمرت لسنوات طويلة، وانتهت إلى اتفاق هدنة سلام، توقف ـ إلى حين ـ صراعهما الدموى...

بعد حروبه المتواصلة، لم يعد طاهْماسب (أو الشاه العبوس كما أطلق عليه، والضعيف الإيمان، كما وصفوه، وأيضاً: سودادى المزاج، جباناً، مترفاً، منغمساً فى الملذات، خشناً...) لم يعد يستلذ القتال والحرب، خاصة بعد أن فقد بعض المناطق والمدن الهامة. فيقرر أنه لن يدخل مع «السلطان» فى حرب جديدة، ولسوف يسلم إليه ابنه بايزيد (ابن سليمان) الذى التجأ إليه راجياً الحماية من أبيه والعون على قتال أخيه (سليم) فى صراعهما على وراثة العرش. كانت أوامر «سليمان» صارمة لا تعرف الاستثناء، حتى مع الأبناء. وبالفعل قُتل بايزيد! عام ٩٧٣ هـ (١٥٦٥ م)..

كان «چان باريّوست لاڤاليت» بطل مالطة، واحداً من الذين واجهوا حصار «سليمان» منذ ثلاثة وأربعين عاماً فى جزيرة رودس. وهو هنا يُحكم تحصين الجزيرة، فاحتملت أسواره خمسة وثمانين ألف قذيفة، ما زالت آثارها باقية حتى اليوم. فى البدء، فى القرن الرابع الهجرى (الحادى عشر الميلادى) كان ظهور هؤلاء الفرسان ببيت المقدس (القدس) بهدف تقديم العون والرعاية للحجاج المسيحيين، وعُرفوا باسم: «فرسان القديس يوحنا (سان چون) المضيافين». ثم تحولوا ـ مع

الأيام ـ من تقديم الخدمات الطبية إلى مزاولة الأعمال الحربية، وأصبح أسطولهم فى رودس يؤرق سفن الدولة العثمانية.

فى دار الوثائق بمالطة، يُحتفظ الآن بوثيقة الإمبراطور شارل الخامس ـ ملك أسبانيا ـ التى يضع فيها جزيرة مالطة وطرابلس على الساحل الليبى تحت تصرف هؤلاء الفرسان ـ بعد إجلائهم عن رودس ـ لفترة ثمانية أعوام، وعليهم أن يراقبوا ويعوقوا تحركات الأسطول العثمانى فى غرب البحر المتوسط، مقابل جُعل سنوى يدفعه لهم.

لكن طرابلس تنتقل ـ بفضل ما جرى على أيدى برباروسا ـ إلى حوزة الأتراك العثمانيين، وبقيت مالطة تفسد خطط الأسطول العثمانى، وتقطع طريقه، وتواصل عليه هجماتها المتكررة الشرسة. وفى كل يوم، يزداد «لافاليت» سيد مالطة ومن معه، رسوخاً ومِراساً وزَهْواً، وإن تجاوز هو سن السبعين. الآن تقف التكنولوجيا الحربية الإيطالية الجديدة فى مواجهة الاستراتيجية الإسلامية العتيدة.

كان حصار مالطة إذن حرباً مقدسة، يتيح استخدام كل الوسائل، وقدّر الأتراك خمسة أيام فقط للاستيلاء على قلعة «سانت آلمو» الرابضة بالميناء، لكنها صمدت نحو شهر، قبل أن تتحول إلى كومة هائلة من الأنقاض، وتبادل الجانبان كل ما يتصور من بشاعة القتل والذبح والحرق والتشويه والتدمير، وقرب نهاية الصيف، أفلح العثمانيون فى تدمير القلعتين المحصنتين الأُخْريين وتقاتل الرجال بكل مخزون الحقد

والعنف على الأرض، وفى البحر، وتحت الماء، وفوق السفن وحولها، بأساليب تفوق خيال «چيمس بوند» السينمائى المعاصر!

مات آلاف المحاصَرين بسبب الحرارة الشديدة. وتعفنت جثثهم تحت حطام الأسوار المتداعية. ثم حدث ما يشبه الأسطورة أو المعجزة، فقد انسحب فجأة الأسطول العثمانى المتفوق، استجابة لنداء خاطىء! كان فى مقدور رجاله بكل يسر أن يدوسوا بأقدامهم من بقى حيّا من جنود الفرسان، إذ كان عددهم لا يزيد على ستمائة!

الآن، أصبح «سليمان» شيخاً عجوزاً تنتابه العلل، فقد بلغ سن الثانية والسبعين، وقلّ من الملوك فى عصره من أدرك هذه السن، إنه أكثر صلاحاً وتقىً، لكنه أكثر عبوساً وقتامة، يأكل طعامه فى صحاف من فخار رخيص، بدلا من الأطباق الفضية، ويأمر بتحطيم كل الآلات الموسيقية فى قصره، ويضع على وجهه مساحيق وردية اللون حتى يوهم الآخرين باعتدال صحته، فلا تهتز مكانة السلطة المركزية فى النفوس، بجميع أرجاء الإمبراطورية.

تزداد هموم «السلطان» يوماً بعد يوم، ويبلغ الأمر مداه عندما جرؤ إمبراطور هابسبورج (المجر) فأعلن أنه لن يدفع الجزية التى افترضها عليه «سليمان»، وتمادى بأن هجم على بعض المدن القريبة من الحدود التركية المجرية داخل البوسنة والصرب. فاستاءت «محرْمة» ابنة «روكسلانا» زوجة «السلطان». وأفصحت عن أحزانها لأن أباها

السلطان تقاعس طويلاً عن الخروج فى حرب مقدسة تدفع السوء عن البلاد، وترد المارقين إلى الصواب، وتصون أعراض المسلمين وأموالهم.

أما «سليمان» نفسه، فقد كان يشغله التفكير فى إنجاز أمور ثلاثة قبل أن يفارق الدنيا: إتمام بناء مسجده، وإصلاح القناطر وشبكة المياه العتيقة التى تمد استانبول، وفتح فيينا ومنها يؤدب المجر. لقد فرغ من تحقيق الأمرين الأولين. وأصبح لزاماً عليه أن ينجز الثالث!

هنا، نتوقف قليلاً لنسأل: أى نوع من الرجال كان «سليمان» ؟

إن الذين جاءوا من بعد، ما زالوا يشاركون معاصريه الإعجاب به، حين فهموه حق فهمه، وخضعوا لمهابته، وأدهشهم قوة إرادته وتنظيمه، ومتابعتهم لغزواته ومعاركه المتلاحقة، تتوجها انتصاراته المتعاقبة.

ومن وراء الأزمات والعصور نكاد نراه بين رجاله يرتدى زيه الأبيض، وكما قالوا: «كأنه منارة وضاءة»، أو نشاهده وهو يترأس حفلاً أُقيم بمناسبة اختتان أبنائه، وهو ينثر الذهب على رءوس الحاضرين، أو نلمحه وهو جالس مبتهجاً يعرض عليه خمسمائة من رجال حاشيته، كل منهم فى زى براق مختلف، فإذا لم يكن فى سَفْرة للجهاد والغزو، أو فى رحلة للفروسية والصيد، فإن «سليمان» كان يفضّل أن يقبع فى قصر «طوبْقابى». وعلى العكس من قصر لويس الرابع عشر ملك فرنسا (قصر ڤرساى)، فإن قصور سلاطين آل عثمان كانت

«إنسانية» الطابع، «بشرية» المساحة والحجم. أما المبانى الفاخرة الضخمة المبهرة، فكانت قاصرة على بيوت الله، تُرفع وتُزين من أجله.

أظهر «سليمان» كثيراً من الحكمة كقانونى مشرع، ليس فقط من زاوية التجديد والابتكار، ولكن أيضاً من حيث التنظيم والحفاظ على التوازن.

كان مؤمناً تقياً، يستشير الفقهاء قبل اتخاذ القرارات الحاسمة والخطيرة، كما كان أميناً صادقاً، فقد رد إلى مصر ما زاد من قيمة الخراج الذى افترضه عليها، لئلا يعتاد الولاة على ذلك فيرهقون الرعية. كان عادلاً منصفاً، فلا يسمح بأى انحراف أو حَـيْف، وإلاَّ فالعقاب شديد، حتى مع أبنائه، لكنه أحياناً كان يصرِّف الأمور قبل أن يتجمع لديه كل الحقائق، فيصفه البعض حينئذ بالاستبداد والبطش.

وصفه سفير آل هابسبورج لدى الباب العالى فقال: «كان له دائماً طابع الرجل الحذر اليقظ المعتدل». وحتى فى بواكير أيامه، حين كانت قواعد الحكم فى تركيا تجيز الصفح عن الخطايا، لم يكن فى حياته ما يُعاب عليه، لأنه لم يعاقر الخمر لا فى شبابه ولا طوال حياته، ولم يستطع أولئك الذين جنحوا إلى تشويه أعماله وتصرفاته أن يدسوا ضده شيئاً أسوأ من إفراطه فى حب زوجته، ومن الحقائق المعروفة عنه، أنه كان مخلصاً كل الإخلاص لمن أحب.

كان يحكم كل شيء، وكل فرد. وفى الحياة اليومية، كان مفرط الذكاء والعطاء، سواء بالذهب أو بالفضة، وفى نهاية اليوم، كان يقتسم مع حاشيته وأتباعه ما يتبقى، ففى كل صباح، يأتيه من أرجاء إمبراطوريته مزيد وفير. ثم كان هو نفسه فناناً حاذقاً مثلما كان سيداً كريماً.

وفوق ذلك كله كان هو البطل المنتصر. إنه السلطان الغازى الذى تحالف معه النصر، وكأنه معقود بركابه، وكيف لا وهو يقود بنفسه الجيوش ويتقدم الجند فى المعارك؟!..... وبرغم الحروب المتواصلة والتى لم تكد تهدأ، فإن الإمبراطورية العثمانية جلبت إلى شعوبها المتنوعة ثمار السلم، ففى ظل تلك الإمبراطورية الفسيحة الأرجاء والأبعاد، تزايدت رقعة الأراضى وأعداد الشعوب فوقها، وامتدت شبكات الطرق ومحطات القوافل، وانتعشت التجارة، وازدهرت الصناعات والحرف، وجعلت الخدمات الاجتماعية من هذه الدولة ـ بشهادة الشرق والغرب معاً ـ أفضل نموذج فى عصرها، وأعطت فلاحى البلقان والبوسنة والصرب، أماناً جديداً متميزاً، وهم قابعون فى ديارهم، مطمئنون على أرضهم وأموالهم.

وراح القادة الأوروبيون المبهورون يتلمسون السر وراء هذا النجاح. وتساءلوا: هل يتمكن حقًا صبى أحد الرعاة من أن يصبح يوماً وزيراً أو كبير الوزراء؟!.. ولما ورد تقرير سفير البندقية لدى الدولة العثمانية، وفيه

يصف أحوال المجتمع الذى تظله راية السلطان، صاح أحد الشيوخ فى مجلس البندقية مستنكراً هذا الزعم، إذ كيف يتسنى فى مجتمع العبيد أن يصبح العبد من السادة؟!

إنه لم يدرك أن أعلى مناصب الدولة كان من المتاح أن يشغله من وُلدوا فى الحضيض، فهكذا تتوزع «طاقة» الإسلام، وهو أمر قد لايصدَّق! وفى الحق، أن أعظم وزراء «سليمان» الثمانية، جاءوا من بيئات متواضعة، وكثير غيرهم من أشجع وأقوى الفرسان فى عصرهم، أما الفقهاء والعلماء والقضاة والمشرِّعون، فقد كانوا من الأبناء الذين نَذَرهم أهلوهم لحفظ القرآن ودراسة علوم الدين والسنة والشريعة، وعلوم الكون وعلوم الحياة.

كان العالم قد تغير كثيراً منذ غزوة «سليمان» الأولى للدانوب، التى انقضى عليها الآن نحو خمسة وأربعين عاماً، رحل عن الدنيا فرانسيس الأول (ملك فرنسا) وهنرى الثامن (ملك إنجلترا) فى عام واحد: ١٥٤٧ م (٩٥٤ هـ)، أى فى العام التالى لوفاة لوثر، وبرباروسا. وانسحب شارل الخامس (ملك أسبانيا) من مسرح الحياة والأحداث بعد أن مج الحروب ضد فرنسا، وضد البروتوستانتيين الألمان وضد العثمانيين، فعهد بسلطاته الإمبراطورية الخارجية إلى شقيقه فرديناند الجالس على عرش فيينا، أما فى داخل أسبانيا، فقد سلم العرش لولده العبوس فيليب الثانى، واعتكف هو فى قصر متواضع، يجاور دير

«يوسته» الأسبانى ـ إن الملك الذى طالما تحدث بالإيطالية مع النساء، وبالفرنسية مع الرجال، وبالألمانية مع جواده، يتكلم الآن بالأسبانية مع ربه، مجهزاً نفسه «للموت الطيب» الذى أدركه عام ١٥٥٨ م (٩٦٦ هـ).

تغيرت أيضاً سياسات واستراتيجيات الدول، فمن الآن، يصبح البحر المتوسط العثمانى بين فكىّ طامعين نهمين: روسيا التى تتحرق غيظاً تريد التوسع والوصول إلى المياه الدافئة، وأوروبا الاستعمارية التى تمد فى نطاق مستعمراتها الثرية الوفيرة الخيرات فى آسيا، وتبغى تأمين الطرق منها وإليها. وانعكاسات هذين المتنافسين على ابتلاع مناطق من حوزة الإمبراطورية الإسلامية، ومنها مناطق وسط أوروبا (وفيها الصرب والكروات والبوسنيين).

وتغيرت مفاهيم الاقتصاد وأساليبه، كما تغيرت أيضاً تكنولوجيا الحرب فى أوروبا وأدواتها، فتجاوزت بمراحل كثيرة مدفعية العثمانيين ـ سلاحهم الرئيسى ـ العتيقة. فانعكس ذلك كله على كل شىء، حتى على ألحان «موتسارت» فى «الانسحاب من سيراجليو» وألحان «بيتهوفن» فى «المارش التركى» حيث نسمع نغماً لطيفاً شجيّـا يطرب الأسماع ولا يستجلب الرهبة أو يستثير الرعب!

إن الرغبة الجديدة المتزايدة نحو اكتساب الكثير والأكثر من الأراضى والبقاع، جعلت الدول الكبرى ذات أهداف التوسع أسرع مرونة، وأشد

دهاء، وأحرص على تجميع الثروات ومخزون القوة. فى حين ظل «سليمان» وحده قابعاً فى إطار نظامه المتجمد الذى أُصيب بتصلب الشرايين، فلم تعد له نفس القدرة السابقة على سرعة التكيف وإعادة البناء.

بدأ انحدار نظام الدولة ـ العثمانية ـ من مستوى المثل الأعلى والنموذج الإدارى لكل الدول، إلى مرحلة نمو بذور الفساد، والرشوة، وبيع المناصب، وتقريب الأقل كفاءة، ثم.. القهر! وقاوم المحافظون التقليديون برعونة وقسوة كل الأفكار الجديدة التى كانت تبغى إنعاش التجارة والصناعة وازدهار المجتمعات والشعوب التى تحتويها الدولة. وتجمّع الجيران ـ المحيطون بهذه الدولة ـ وفى دمائهم وأدمغتهم تجرى وتغلى تيارات القرن الجديد وطموحاته، وهم يرقبون هذا النجم الثاقب وهو يميل نحو الغروب، ولسوف يطْلقون عليه فى القرن التاسع عشر اسم «رجل أوروبا المريض».

غير أن شفق الغروب بالنسبة للإمبراطوريات الكبرى يستغرق دهراً طويلاً حتى يأتى عليه ظلام الليل. ومع الإمبراطورية العثمانية، استغرق ذلك نحو ثلاثة قرون، وهو زمن قياسى، ظلت فيه ولايات الإمبراطورية متشبثة بمظلة الدولة العالمية، محتفظة شعوبها بلغاتها، ودياناتها، وثقافاتها، وجذوة مشاعرها القومية (ومثال واضح على ذلك تلك المنطقة من العالم التى نحن بصددها أى الصرب وكرواتيا والبوسنة وما

حولها). من هنا، كان البوْن شاسعاً بين الصيغة العثمانية، والتجربة الأسبانية حين أعلنت إمبراطوريتها النصرانية الاسترداد والتطهير، فلم يُسمع في أرجائها على الفور، لا صوت المؤذن، ولا اللسان العربى، والتاريخ اليوم يعيد نفسه!

لكن نجم «سليمان» لم يَـغْرب بعد، فهو ما زال قائد جيوش الجهاد المقدس، وقد عزم على الخروج فى أول مايو ١٥٦٦ م (٩٧٤ هـ) مستهدفاً الدانوب (ڤيينا). إلا أن المسيرة هذه المرة تختلف، فهى بطيئة، وعلى نحو مزعج، فلم يعد «السلطان العظيم المهاب» قادراً على اعتلاء فَرسه، بل هو يمضى مع جيشه الزاحف محمولاً فى عربة، والمهندسون يَستبِـقون ركْبه ليمهدوا له سطح الطريق، فلا يهتز فى جلسته، طوال تسعة وأربعين يوماً، حتى بلغ بلجراد (عاصمة يوغوسلافيا فيما بعد) تحت وابل من المطر الغزير، فتنهار جسور، وتفيض أنهار تغرق مياهها الطرق.

ثم تأتى الأنباء بأن أحد كُونتات المجر ذبح والياً من ولاة «سليمان» وأعلن العصيان فى «تزيجتْفار» بالقرب من «موهاك». وفى غمرة الغضب، يأمر «سليمان» بأن يتحول الجيش كله لتدمير حصن تلك المدينة، وبرغم أن جنود الحصن لم يزد عددهم على ألفين وخمسمائة فإنهم صمدوا فى الدفاع طوال شهر كامل، تخللته هجمات على الجيش الذى يحاصرهم، وقتلوا منه المئات. وفى نهاية المطاف، استطاع

الكونت المجرى أن يتسلل مع من بقى حيًّا من جنوده، وهو يرتدى زيه العسكرى الأنيق، ممتشقاً سيفه المحلى بالذهب والجواهر، وأبحر فى مركب كان ينتظره، ولكن أدركه بعد برهة المترصدون، وكيف ينجو من هلاك محقق مائة وخمسون هارباً كان يحاصرهم نحو مائة ألف؟ وسقط الحصن بالتأكيد!

لكن «سليمان» لم يسمع بما حدث، ولم يُخبره أحد! ففى نفس تلك الليلة، مات «سليمان» فى سرادقه المضروب فى مؤخرة الجيش!

مات «السلطان». وأخفَى العدد القليل من الحاشية الذى علم بذلك، أخفى نبأ موته حتى لا تنهار الروح المعنوية للجنود، ولن يعرف أحد عن موته شيئاً على الإطلاق، حتى يجلس ابنه «سليم» الثانى على العرش، وهو الآن على بعد ثمانمائة أو أكثر من الأميال فى «كوتاهْية». واستمرت الأوامر والقرارات تصدر من سرادق السلطان، كما لو كان حيًّا، ومن بينها المِنح والأعطيات والمناصب، ورسائل إلى الملوك تخبرهم نبأ النصر والاستيلاء على الحصن، ورسالة إلى إمبراطور النمسا ومعها رأس «الكونت» القتيل.

ثم صدر الأمر بالرحيل وعودة الجيش. وفى العربة السلطانية، أُجْلس «سليمان» خلف ستائر كثيفة مُسْدلة، فى رحلة العودة الطويلة إلى العاصمة، وبعد ثلاثة أسابيع وردت إلى الجيش المتراجع أخبار عن اعتلاء الغلام «سليم» العرش وإعلانه عن وفاة أبيه، هنا فقط، أذاع «محمد سوقوللو» على القادة والجند خبر وفاة «سليمان».

خيم الصمت المطبق على الجيش، فقد صدمه النبأ، ونفس الشيء حدث في استانبول، إذ خرجت حشود الجماهير تزحف فى صمت حزين نحو مسجد السليمانية. لقد كان «سليمان» أجَلّ وأعظم من مجرد سلطان حاكم، إنه جزء حيوى من حياة كل هذه الأجيال، وقد ظل يوجّهها ويقود مسيرتها طوال عمرها، ورفع إمبراطوريته المقدسة إلى الذروة، وصاغ باقتدار عصرها الذهبى، وجعل منها «أكبر دولة فى أوروبا وأفريقيا، إن لم يكن فى العالم كله». هكذا قال مؤرخ غربى ثقة.

وطبقاً للتقاليد العثمانية المتوارثة، كان الأمر يقضى باستخراج قلبه من جسده، ودفنه ـ أى القلب ـ فى ذات المكان الذى توفى فيه.

فى غفلة من التاريخ.. ومن الناس.. هناك غير بعيد من «تزيجتفار» ـ بالمجر ـ لوحة قديمة عند حافة طريق مغمور بين الحقول مكتوب عليها «زليمان». وعلى مقربة، ترتفع بين الحقول أطلال بناية من الواضح أنها من عصر غابر. يظن أهالى المنطقة أنها بقايا كنيسة قديمة، إذ يعلو بوابتها الأمامية صليب كبير. فى الداخل، حيث تتسلل أشعة الشمس عند الغروب يظهر على الحائط نقش كتابة باللغة التركية بجوار هلال محفور فى الحجر، وكذلك اسم مدينة «كوتاهيا»، ثم هذه الكلمات: «دفن هنا قلب السلطان سليمان»!

قديماً قال شاعر تركى:

«قبل يوم الحساب.. لابد من يوم المعرفة»!

(٥)

آخر عمالقة القرن العسكريين

فى عام ١٩٤١ ، والحرب العالمية الثانية المتأججة تفور وتَمور، سأل «ونستون تشرشل» أحد مساعديه: «هل يوجد شخص يدعى تيتو؟ أم أنه اسم امرأة؟ ربما يكون مفتاح شفرة سرية» !!

ثم انقشعت الحرب، وتغير الكثير من خرائط الدول مثلما تغيرت أنظمة للحكم، وتحولت مسارات أمم وشعوب، وقبل رحيل «تشرشل» عن الدنيا الفانية، كان نجم «جوزيب بروز ـ تيتو» قد علا لامعاً متألقاً فى سماء التاريخ، وفى حياة الناس. فلما توارى بدوره حيث يتوارى كل الأحياء عند انتهاء العمر المقدور، وصفه كتّاب الحوليات ومؤرخو الوقائع بأنه: «ظل ـ تيتو ـ لعدة سنوات، أُحد العمالقة الذين صنعوا تاريخ هذا القرن، وآخر القادة العسكريين الكبار، الذين صارعوا ـ بضراوة ـ الهتلرية، فصرعوها ببسالة وفخار».

لكن «تيتو»، الابن السابع من الأبناء الخمسة عشر للفلاح البائس «فرانچو بروز» وزوجته «ماريا چافرسك»، تفوّق على عمالقة عصره بأمر لم يحرزه سواه، خاصة أولئك القادة من العسكريين والزعماء السياسيين فى شرق أوروبا، فهو الوحيد الذى ناطح ـ بإصرار وعناد ـ «جوزيف ستالين» ورفض الانصياع لسياسته والانضمام لمجموعة الدول التى تدور فى فَلكه، وظل قرابة نصف قرن، يمسك بثبات وقوة وحزم، زمام إرادته ومصيرا أمّته، فقدم المثال الحى، على أن الشجاعة والتصميم العنيد، يدْعمان شخصية الدولة، ويحفظانها من التراخى، والتهافت، والذبول.

هل هى ضربة حظ، أم ضربة «معلم» ؟!

فالأسرة تقف عند مستوى الفقر، وفيما يشبه المعجزة، يلتحق الطفل «چوزيب» بالمدرسة المتداعية بالقرية، والتى بها مدرس واحد ـ مصاب بالسل ـ لثلاثمائة وخمسين تلميذاً. لكن الغلام ينمو، وتنمو فى داخله شعلة متقدة من أتَون المشاعر الدفينة فى قلوب شعْبه الكرواتى الصغير، أحد شعوب البلقان. وفى سن الشباب، تفخر الأسرة والأهل بأن الفلاح الفتى أصبح عاملاً بمصنع للحديد والصلب، وفارساً يجيد ترويض الخيول البرية، ثم ميكانيكياً على مستوى عالٍ من المهارة، وهو لم يبلغ بعد سن العشرين، أى فى عام ١٩١٢ .

وسرعان ما ينجرف فى تيار السياسة وأحزابها وصراعاتها الدامية،

فيُلقىَ القبض عليه، ويساق ـ أثناء الحرب العالمية الأولى ـ إلى غياهب أحد السجون فى روسيا وفيه كما قال فيما بعد: «تعلمت المبادىء الأولى للشيوعية»، ثم ينضم هناك إلى جماعات البلاشفة، ويشترك معهم فى الحرب الأهلية (حتى عام ١٩٢٣) ويعترف قائلاً: «أصبحت جنديًا فى الحرس الأحمر، ثم عميلاً للمخابرات الروسية الدولية». يعود إلى موطنه ـ كرواتيا ـ يقود حزباً شيوعياً غير معترف به قانونا، فيزج به فى السجن (من عام ١٩٢٨ إلى ١٩٣٤). ويخرج منه منفياً إلى موسكو، ومنها إلى باريس فيسكن حجرة بالحى اللاتينى، فلما نشبت الحرب العالمية الثانية، واحتل الألمان يوغوسلافيا قاد حركة المقاومة ابتداء من يونيو ١٩٤١، وكان من الحكمة وبعد النظر بحيث جمع كل العناصر ذات الاتجاهات والميول المختلفة ـ والمتضاربة أحياناً ـ فى تحرك واحد ضد العدو المحتل.

أصبح اسم «تيتو» يمثل روح الشعوب اليوغوسلافية، وتعبيراً عن إرادتها الفولاذية فى مقاومة الغزو النازى، وهو فى نفس الوقت اسم اكتسبه فى أثناء المقاومة، ويراه تتويجاً لسبعة وثلاثين سنة من العمل الثورى المتواصل، وما إن تم اختياره سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعى اليوغوسلافى، حتى أخذ فى تغيير هياكل الحزب ومناصبه بأجمعها ـ وساعده على تعلق الناس به والتفافهم حوله، أن حاكم يوغوسلافيا آن ذاك الأمير «پول» انحاز إلى جانب النازى (الألمان) مما أثار سخط الشعوب التى تتكون منها يوغوسلافيا، فى الوقت الذى دفعت فيه ـ من

أبنائها وبناتها ـ ثمناً غالياً، بل مخيفاً: ١٧٠٠٠٠٠ قتيلاً أى بنسبة ١١٪ من مجموع السكان! من بينهم ـ رجالاً ونساء ـ من مات من التعذيب حرقاً وذبحاً ورمياً بالرصاص فى ثلاثمائة معسكر اعتقال أقامها الألمان وحلفاؤهم الإيطاليون على أرض يوغوسلافيا، أى ثلاثة أضعاف الذين ماتوا فى يوغوسلافيا أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ـ ١٩١٨)، ودمروا ثمانمائة وخمسين ألف منزلاً.

وهذه الأرقام المفزعة تبين إلى أى مدى تكْمن روح المقاومة، والإصرار العنيد على الاستقلال، لدى تلك الشعوب، وبمجرد أن أعلن تيتو كلمته الملتهبة: «لا يحق لأحد أن يرضىَ عن احتلال البلاد»، حتى انضم إليه ثمانمائة ألف رجل وامرأة، توزعوا على اثنتين وخمسين فرقة، ومائة وسبع كتائب، لديها مصفحات، وأسلحة ثقيلة، وحتى بعض الطائرات! والعجيب حقاً أن هذه المقاومة المسلحة، والمنظمة، لم تستعن بأسلحة من جيوش الحلفاء (المحاربين للنازى وأشياعه)، ولا بتدخل مباشر منهم، وإنما كان معظم تسليحهم يأتى من جانب الألمان! مما كانوا يغنمونه فى المعارك، ومن الهجوم على معسكرات ومواقع جيش الاحتلال، وكان لزاماً على فرق وجماعات المقاومة أن ينزلوا من مئات الجبال، وأن يتقدموا زاحفين شِبْراً بشبر، وشارعاً بشارع، ومن حولهم يؤازرهم ثمانية ملايين رجل وامرأة، فتى وفتاة، يحملون السلاح فى المصانع والمزارع، فى المغارات والكهوف، إنها أمة بأسرها ـ بلا ضجيج ولا صراخ ولا استغاثة ولا طنطنة دعائيـة

ـ تتحرك في نظام مدهش، وبسالة نادرة، واعتزاز بالنفس لايُقاوَم، مع ابتسامة غلاَّبة على كل الوجوه، حتى تحقق لها النصر.

وفى برلين، استشاط هتلر غيظاً وغضباً من موقف هذه الدولة الصغيرة التى لا تبعد كثيراً عن ألمانيا (تفصل بينها النمسا) فيأمر بتدمير بلجراد. كان هذا أول أخطائه الكبيرة.

كانت يوغوسلافيا هى الشوكة المؤلمة فى حلق الفوهْر ـ هتلر ـ إذ كلفته ستة أسابيع كاملة فى محاولة قهرها وترويضها. وهذه الأسابيع الدامية المرهقة، أعاقت تقدمه بسبب الجليد نحو روسيا التى أعلن عليها الحرب، وأفقدته كل فرصة كان يتوقعها للنصر (من المفارقة الطريفة أن هتلر أطلق على معركته ضد روسيا اسم: بربا روسا). ولم تكن المقاومة اليوغوسلافية سهلة ميسرة، إذ كانت الحاجة ماسة دائماً إلى السلاح، وإلى الذخيرة، والمؤن، ومنذ البداية، فإن أول موقع للشرطة احتله ستة رجال من المقاومة، تم فى سرعة خاطفة. وبضحايا عدد كبير من جنود النازى، والمدهش أن هؤلاء الرجال كانوا يحملون بنادق صيد بدون خراطيش! ولكن، من كل قمم الجبال، ومن أعماق كل الغابات، ومن جوار كل الشُّطآن، ومن داخل كل البيوت، فى القرى والبوادى والمدن، انطلقت شرارة البعث غير المرئية، والتى لم تستطع أن تخمد جذوتها أربع فرق مسلحة تصحبها الطائرات القاذفة، أرسلها هتلر على عجل.. ولكن هيهات!

لم تأخذ المقاومة اليوغوسلافية حقها المناسب من تسجيلات التاريخ المعاصر، ولم تبلغ ضراوة ونجاح المقاومة ضد الاحتلال ـ أيّا كان نوعه ـ فى أية دولة أوروبية مثلما كانت فى يوغوسلافيا. ومن هنا، لم يرتفع العلم ذو الصليب المعقوف (النازى) طويلاً فى سماء يوغوسلافيا، وحتى فى يوم عقد اتفاقية مع الألمان قبيل الرحيل، وقع هجوم على مركز القيادة الألمانية، ومزقت الأعلام النازية، وأُشعلت النيران، ونظم ثلاثمائة من الصبية فيما بينهم جماعات صغيرة انطلقت فى بلجراد ـ العاصمة ـ تهاجم مواقع للجيش المحتل، ومواقع للمتعاونين معه، وكان أسلوبهم كالآتى: فى وضح النهار، يبدءون بالهجوم على أكشاك الصحف، ويخطفون الصحف الألمانية والصحف المحلية المماثلة لها، ثم يسرعون إلى الموقع المختار، ويمسك أحدهم بتلك الصحف، ويسكب الثانى عليها البنزين، ويشعل الثالث فيها النار، ثم يقذفها نحو الهدف ثم يفرون. لم يستطع جنود الاحتلال القبض إلا على جماعة واحدة من هؤلاء الفدائيين الصغار، وأعدموا أفرادها رمياً بالرصاص، ومع ذلك لم يخفْ غيرهم من الصبية، وتابعوا هجومهم على نطاق واسع طوال اليومين التاليين! وأضرموا النيران فى عشرات السيارات الحربية النازية، وفى جراج واحد ضخم دمروا أكثر من مائة سيارة!

فى القرى والريف، استخدم الفلاحون الفئوس وأسلحة المحاريث وأدوات الزراعة فى الهجوم على معسكرات النازى وقتْل الجنود الألمان

والخونة المتعاونين معهم، وبضربة بلطة واحدة، أطاح أحدهم برأس جندى ألمانى كان يعْبر راكباً دراجة بخارية. وفى «مونتنجرو» نجح هؤلاء المقاتلون البسطاء فى إعاقة تقدم فرقتين إيطاليتين، بل واستولوا على معظم الأسلحة التى كانت فى حوزة جنودهما. وفى زغرب انهالت القنابل على فريق من الكروات المقربين من الألمان كانوا يؤدون عرضاً موسيقياً، لكن الثمن كان فادحاً: قبض المحتلون فى ٢١ أكتوبر ١٩٤١ على سبعة آلاف من طلاب الجامعات والمدارس وأساتذتهم، وأطلقوا عليهم جميعاً الرصاص! ومع ذلك، فى غمرة تدفق أنهار تلك الدماء الفياضة المتزايدة، نشأت الوحدة الوطنية وتوثقت بين أبناء الجمهوريات الست اليوغسلافية المحتلة، وشارك فى ذلك كله جميع أبناء الشعوب المتضامنة معاً، حتى النساء. ومن مقدونيا إلى سلوڤينيا تواصلت مسيرات جماعات المقاومة، تحت الأمطار المنهمرة بغزارة والثلوج المتساقطة وعواصف البرد القارس، ينضم إليهم فى الطريق المزارعون الذين هجروا حقولهم خوفاً من اعتداءات جنود الاحتلال، وهم يسوقون ماشيتهم وأغنامهم. تلك أمة بأجمعها، دائمة التحرك متواصلة المقاومة والقتال، وهو قتال لا يرحِم، ولا يعرف الهوادة ولا المهادنة. حتى آلاف الجرحى الذين كانوا ينقلون على ظهور البغال والخيول، لم تفارقهم أسلحتهم تحسباً لأية مفاجأة، فالألمان لا يأبهون بجراح المصابين بل يجهزون عليهم بغير اكتراث.

كل ذلك يحدث، وتيتو بين الجميع، مثل الجميع، أصيب مثلهم

فى إحدى المعارك عند مدينة «أُوزِيتْش» بالبوسنة فى مايو ١٩٤٤، حتى إن «هيملر» رجل النازى القوى اعترف بلا مواربة أو خجل، إذ قال لبعض مرءوسيه: «يؤسفنى أنه ليس لدينا عشرة رجال مثل تيتو. إن هذا الرجل لا يملك أقل موهبة تميزه أو تجلب له الحظ، ومع ذلك فهو يفلح دائماً فى التسلل خفية من بين أصابعنا.. إنه يزعجنا ويؤرّقنا، لصلابته فى المعارك.. لقد سحقنا له فِرقاً ومحونا آثارها، ولكن فى كل مرة، يجهّز هذا الشيطان غيرها».

هل كان «هيملر» ذكياً حسن الإدراك والفهم؟ مطلقاً. هل لم يكن تيتو حقاً يملك شيئاً مميَّزاً؟ إن تيتو كان بالفعل يملك ميزة، ضخمة رائعة. وهى تفسر كل شىء: الشجاعة التى لا يتطرق إليها أدنى شك لدى شعب يدرك تماماً لماذا يُقْتَل ويقاتِل. هنا يكمن سر انتصاره ـ بسلاحه وأدواته المحدودة ـ على أقوى جيوش العالم فى عصره.

ولقد كرّم الشعب ـ أو مجموعة الشعوب ـ اليوغوسلافية قائد المقاومة الذاتية الباسلة، تكريماً مناسباً: ففى أثناء انعقاد مؤتمر «يالطا» (الذى أعقب الحرب العالمية الثانية، واقتسمت فيه الدول الكبرى المنتصرة مناطق السيطرة والنفوذ فى كل أرجاء العالم، والذى لم يوجه فيه ستالين الدعوة لحضوره إلى «صديقه» الحليف المميز تيتو)، فى هذه الأثناء منح الشعب قائده مرتبة ولقب «ماريشال». وفى ذلك اليوم،

صدرت آخر نشرة حربية من مقر قيادة الماريشال تيتو وفيها: «إنه فى الفترة من ٢٠ مارس إلى ١٥ مايو، قتلت جماعات فرق المقاومة ٩٩٩٠٧ فرداً من جنود العدو، وأَسَرت ٢٠٩٦٣٩ من بينهم الجنرال الألمانى «لير» قائد الجبهة الجنوبية الشرقية، واستولت على ١٨٢٠٠٠ بندقية من أسلحة العدو، و ٢٤٤٥٤ رشاشاً، ١٣٢٠ مدفعاً، و ٤٠ طائرة»!

انتخب أعضاء الحزب «الماريشال تيتو» رئيساً للحكومة المؤقتة التى تولت زمام السلطة عقب انتهاء الحرب، وهى الحكومة التى مثلت يوغوسلافيا رسمياً فى مؤتمر طهران، وبذلك انتهى حكم الأسرة الملكية التى كانت تحكم البلاد، والتى هرب أفرادها ـ خلال فترة الحرب ـ إلى لندن.

شرع تيتو ـ منذ عام ١٩٤٥ ـ فى وضع نظام ودستور للدولة اليوغوسلافية المتحررة (بدون تدخل من الجيوش الأجنبية) باعتبار أن يوغوسلافيا «دولة ديمقراطية شعبية فيدرالية». ورفض الانحياز إلى موسكو، فنشأ خلاف حاد بينه وبين ستالين عام ١٩٤٨. (كان المقرر فى مؤتمر يالطا عقب الحرب العالمية الثانية أن تقسم يوغوسلافيا بالتساوى بين روسيا وحلفاء الغرب، لكن تيتو ـ وشعبه من ورائه ـ رفض بإصرار وأعلن عن استمرار المقاومة. فعدل المؤتمرون عن هذه الفكرة، وبدأ سخط ستالين وغضبه من تيتو).

«إن يوغوسلافيا أصبحت ثمرة من الجوْز، يصعب تماماً كسرها». هكذا قال تيتو فى السنوات التى أعقبت الحرب، وهو يعنى ما يقول.

أصبح ليوغوسلافيا جيش نظامى (يحتفظ بخبراته السابقة فى المعارك الحربية) يتكون من ٢٥٠ ألف جندى ونحو ألفى دبابة روسية وأمريكية، وأكثر من ثلاثمائة طائرة مقاتلة قاذفة، من بينها طائرات ميج و ف ـ ٨٤، ومئات من الطائرات الهليكوبتر الفرنسية (معظم هذه الأسلحة والطائرات موزع على جمهوريات: الصرب ـ كرواتيا / سلوڤينيا، وحرمت منها جمهوريات مثل: البوسنة ـ الهرسك/ مقدونيا..).

ومن خلال «نبض» تيتو، بُذلت جهود ضخمة لتحديث يوغوسلافيا على الرغم من أن جيشها كان يستهلك نحو ٥٠٪ من الميزانية السنوية الفيدرالية. (مرة أخرى نشير سريعاً إلى الظلم أو الإجحاف الذى وقع على الجمهوريات المسكينة التى كانت تدفع حصتها للميزانية الفيدرالية ولا تأخذ نصيبها العادل من نصفها الموجّه إلى التسليح ودعم قواتها، وأيضاً صناعاتها). فى سنوات قلائل نسبيا، نجحت الصناعات الحربية فى يوغوسلافيا بأن تلبى ثلاثة أرباع احتياجات قواتها المسلحة، وظهر هذا الإنتاج الحربى فى الأسواق العالمية (الموّردة لدول العالم الثالث أو المتخلف أو غير النامى!) منافسة لإنتاج السويد، وفرنسا، وتشيكوسلوفاكيا (سابقاً إذ انقسمت مؤخراً إلى جمهوريتين: التشيك والسلوڤاك).

في عام ١٩٤٨ يظهر واضحاً بين رجل روسيا المرعب «ستالين» وبين رجل يوغوسلافيا القوى العنيد «تيتو». وقبيل موته ـ المفاجىء الغامض فى موسكو ـ يصدر ستالين أمراً سرياً بالتخلص من «تيتو»، أى بقتله! ومن التعبيرات الشائعة المشهورة عن ستالين يومها أنه قال لخروتشيتشيف: «لو أننى رفعتُ أصبعى الصغير، لهوَى تيتو على الفور واندحر»! وسرعان ما أعلنت الدول الاشتراكية (فى أوروبا الشرقية والمتحالفة قهراً مع روسيا) أن تيتو خائن للمبادىء «الديمقراطية» اللينينية الاشتراكية. ولم يعبأ تيتو، واتجه ـ برغم احتفاظه بسياسته الشيوعية الاشتراكية ـ نحو الغرب. ثم يوقع فى عام ١٩٥٥ (بعد موت ستالين) إعلاناً مع روسيا (الإتحاد السوفيتى) يقضى بالحقوق المتساوية بين البلدين، والعلاقات القائمة على الاحترام المتبادل، وحق كل منهما فى اختيار الطريق المؤدى إلى تمام الاشتراكية. (وانقطع فى عام ١٩٩٠ هذا الطريق الشائك الشائن فى معظم الدول الاشتراكية الشيوعية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى المتفكك، واتجاهها العكسى نحو الغرب!).

فى لقاء صحافى، سُئل تيتو:

ـ هل تتوقع ابتعاث أو ظهور ستالين جديد فى روسيا؟

فأجاب:

ـ «لا، لم يعد الرجوع إلى الوراء ممكناً. إن المواطنين فى روسيا اليوم

يطمحون إلى حرية التعبير، بعد أن خرجوا من تلك الفترة المظلمة التى ألْجمت كل فرد، وكان فيها من العسير على شخصين أن يتحادثا بحرية وصراحة، لأن كُـلاًّ منهما كان يحذر الآخر»! (وشهد شاهد من أهلها! وبالمناسبة: الذين عاشوا فى مصر تلك الفترة من منتصف الخمسينيات وطوال الستينيات يدركون جيداً وقع ومغزى هذا «التصريح» من تيتو).

ومع ذلك، رفض الماريشال أن يسمح فى بلده بتعدد الأحزاب لإتاحة فرصــة أكبر لحرية التعبير والرأى. فأجاب عن ذلك ـ حين سُئل ـ بقوله:

ـ إن هذا يفتح باباً للبلبلة والاضطراب ـ ! ـ ومنذ البداية، لم تُطرح للمناقشة فكرة التعدد الحزبى. لماذا؟ لأن كل قادة الأحزاب البورجوازية اليوغوسلافية تقريباً (أى الذين كانوا قَـبْله) كانوا متعاونين بصورة أو بأخرى مع العدو المحتل، وكانوا يعملون ضد حركتنا التحريرية... (وهذا زعم عجيب: إذ لو افترضنا صحة تلك الأسباب، فليس من الإنصاف وحسن المنطق أن تحرم أجيال بأكملها مِن حق طبيعى فى الوجود بسبب أخطاء أفراد قلائل، وكلهم ماتوا أو قُتلوا أو فروا. وهل نمنع استخدام السيارات مثلا لأن قلة من بعض السائقين تَقتل أفراداً فى كل عام؟!). ثم يتابع تيتو بقوله:

ـ إن الكتل الشعبية ملتصقة بنا، كانت معنا فى الكفاح، وقَـبِلت

منهجنا. وفى تلك الظروف، ما الذى يدعو إلى ابتداع أحزاب جديدة؟!

ثم يبدو التناقض الواضح ـ أو قُل: الصارخ ـ بين ما صرح به أو يدافع عنه، وبين رأيه السابق فى مناخ القهر والرعب بالاتحاد السوفيتى وإجابته عن السؤال:

ـ فى بلجراد، وبكين، وموسكو، وتيرانا (عاصمة ألبانيا المسلمة) هل تتلائم وتنسجم الماركسية اللينينية مع الاشتراكية الإنسانية؟ قال:

ـ حسناً! هذه مسألة جوهرية. إن كل أيدلوجية ماركسية لينينية منبثقة عن الإنسانية فالعنصر الإنسانى متطابق تماماً مع القيمة الإنسانية. إن حد السلاح الأيديولوچى لا يهدد إلا أعداء الثورة الاشتراكية، إن المجتمع الاشتراكى الحق، عليه أن يضمن حرية العمل، وحرية الإنسان، والازدهار الكامل للشخصية الإنسانية. (هل هذا صحيح؟ ولماذا كانت انتفاضة «شعوب» الدول الاشتراكية بدءاً من روسيا حتى دول الكتلة الشرقية السابقة، وقد أُعلنت سخطها ورفضها الكامل لهذا النظام وقياداته ومزّقت أعلامه وحطمت تماثيل زعمائه، ومحت كلمة «الشيوعية» و «الاشتراكية» من دساتيرها الجديدة؟! من هذه الدول يوغوسلافيا ذاتها).

وفى هذا المنعطف ـ أو المنحدر ـ بالذات، سُئل تيتو فى السنوات الأخيرة من عمره:

ـ إن كل القوانين والشرائع الدولية والدينية تحض على احترام المعنى والقيمة الإنسانية، ويندرج فيها ما يصرح به الزعماء الشيوعيون، فما هو تفسير «الفشل» الذى يحيق بدول الأيديولوچية الاشتراكية، وهو ما تراه أعيننا؟ أجاب:

ـ لا، ليس هذا فشلاً، لنضع فى اعتبارنا تطور المجتمع على المدى الطويل، إننا نرى الاشتراكية اليوم على النحو الذى لا يرغب البعض فى أن تكون عليه. إن العالم يتجه نحو العلاقات الاجتماعية المتنامية ـ برغم ما يعانيه من أزمات ومشكلات خطيرة متزايدة ـ وهذا ما غنى للاشتراكية عنه. وإذا نظرت حولك، فسوف ترى أن عدداً كبيراً من دول العالم يتخذ لنفسه طريق الاشتراكية، فى عدد لا بأس به من الدول الأفريقية يتدعم هذا الاتجاه.. إن العالم يتجه بحق نحو الاشتراكية..». اليوم يبدو بوضوح خطأ هذه النظرة، وعكس تلك النبوءة، فإن غالبية هذه الدول التى أشار إليها غيرت بسرعة جلدها وأصبحت تمقت تلك الكلمة «الاشتراكية» وتخجل من ذكْرها. إلا أن الرأى السديد الذى أصاب فيه عين الحقيقة ـ أثناء هذا الحوار الذى جرى معه قبيل وفاته عام ١٩٨٠، هو قوله:

ـ إن القوى العظمى لها دائماً أهدافها «العظمى». وهناك دائما «مَن» يدفع ثمن تلك الأهداف. واليوم، يكثر شيئاً فشيئاً عدد الدول والشعوب التى لا تريد ولا تسمح بأن تتحقق تلك الأهداف «العظمى»

من حسابها الخاص! إن الذى لا يحترم - قبل أى شئ - بلده ووطنه وأمته، لا يمكن أن يحترم البلاد والشعوب الأخرى، ولن يجد الاحترام من تلك البلاد والشعوب.

بريونى - يوغوسلافيا - عام ١٩٥٦ :

يتم لقاء تاريخى بيت تيتو وجمال عبد الناصر وجواهر لال نهرو وباجتماع الثلاثة يظهر فى الوجود شعار «عدم الانحياز»، وتسرع دول العالم الثالث إلى الانضمام والتلاقى معاً تحت هذا الشعار، إذ لابد من تجمع يقف بين القوتين الكبيرتين، لكل عضو فيه إرادته المستقلة، وحريته الذاتية، ومسلكه الخاص. ونظام حياته الملائم له، بدون خضوع لهذا أو ذاك، وبدون تبعية لشرق أو غرب. (أو هكذا كان المفترض أن يكون). فى «باندونج» بإندونيسيا كان اللقاء الأول لتلك الدول تحت اسم «الدول الآسيوية الإفريقية». وفى اجتماع بلجراد عام ١٩٦١ اختار لها تيتو اسم: «دول عدم الانحياز».

عاش تيتو وعمرّ طويلا - ٨٨ سنة - حتى أن المحيطين به كانوا يشيرون إليه فى أحاديثهم فيقولون: «العجوز». وأمضى النصف الثانى من هذا العمر المديد وكأنه ملك، بل إمبراطور أو قيصر، وقد وصفه أحد المعلقين السياسيين بقوله: «عاش - مع زوجته چوڤانكا - حياة أصحاب المليارات». وهو وصف غير مكتمل، فإلى جانب أبهة ونعيم وبذخ أصحاب المليارات الذين ينعمون بها ويترفون، تضاف السلطة،

والسيطرة، والتسيُّد فى دولة ترفع شعار لينين: «إن القادة هم المثل العليا للطبقة العمالية. إن هذه الطبقة ـ البلوريتاريا ـ تتطلب «مساواة» مجردة فى الحقوق، وانعدام الامتيازات إطلاقاً مهما كانت طفيفة، وهى عدو لكل تعصب قومى».

إن ابن المزارع البائس المعدم الذى عاش طفولة قال هو بلسانه عنها: «كنت مع إخوتى وأخواتى نبكى صغاراً من الجوع، عشت السنوات السبع الأولى فى عناء مستمر، وزاد الأمر سوءاً أن هذه الفترة تزامنت مع أزمة غير عادية طاحنة كانت قاسية على الفلاحين، وبصورة مفرطة فى مناطق مثل كرواتيا التى ولدت ونشأت بها».

إنه هو نفسه ـ برغم كفاحه البطولى وانتصاراته التى لا تُنكر وصورته المحفورة فى خيال الشعب (أو مجموعة الشعوب اليوغوسلافية) ومواقفه التى لا تنسى مع ستالين، وتشرشل، وديجول، وماوتسى تونج.. ـ نراه على الجانب الشخصى يعيش ويتنقل فى ثراء باذخ وترف قل أن يُضاهى: عشرات القصور، والاستراحات فاخرة، متعددة المواقع والأشكال، فى بلجراد، ولوبليانا، وبريونى المطلة على بحر الإدرياتيك بحدائقها الفسيحة وقصرها المنيف (كانت هذه الجزيرة مقراً لإقامة العائلة الملكية الإيطالية سابقاً) والتى يصفها البعض بأنها: «جنة حقيقية على الأرض»! ما أكثر الزعماء والقادة الذين استقبلهم «تيتو» وزوجته چوڤانكا فى هذا المقر الساحر: جمال عبد الناصر، مونتجومرى، بولجانين، خروتشتشيف، فوستر دالاس، نهرو، هيلاسلاسى، وملك

اليونان وعشرات غيرهم..... وقطار فاخر خاص أزرق اللون، ويخت مدهش، وحدائق نباتات وحيوانات ملحقة بالقصور، غير الاستراحات المتناثرة في داخل الغابات المعدّة لرحلات الصيد..

في إطار هذا البذخ والنعيم، لا تكاد تفارق «الماريشال» زوجته الثالثة «جوڤانكا دوديسا ڤليبيڤتش» ، لا في داخل يوغوسلافيا ولا في سفراته إلى الخارج، حتى عام ١٩٧٧ ، أي قبل وفاته بثلاث سنوات.

كانت مقاتلة في جيش المقاومة ضد الاحتلال النازى، وهي من أسرة صربية، عندما كانت في سن السابعة عشرة دخل الألمان كرواتيا حيث تقيم أسرتها. وذبحوا كل أفرادها، ونجت هي من الموت بأعجوبة. فانخرطت في فرق المقاومة، ومنحت رتبة ملازم. وفي عام ١٩٤٧ طلّق تيتو زوجته الثانية «هرتا» وهي من سلوڤينيا، وكانت تعمل مدرسة، ثم انضمت إلى فرق المقاومة المسلحة. وعندما بلغت جوڤانكا سن الثمانية والعشرين، ألحقت بسكرتارية تيتو العسكرية. فكان لقاء، وإعجاب، فاصطفاء. ظل الأمر سراً خافياً نحو عام، لا يعرفه إلاّ قليل من المقربين، إلى أن زار وزير الخارجية البريطانية «أنتوني إيدن» بلجراد في ١٨ سبتمبر ١٩٥٢ ، فأقام له «تيتو» حفل استقبال فاخر، وفوجيء الذين تلقوا بطاقة الدعوة لحضور هذا الحفل، أنها تحمل هذه العبارة: «الماريشال جوزيب بروز تيتو وعقيلته...». ظلت جوڤانكا على مقربة من «الماريشال» ، ومن مقابلاته ورحلاته الرسمية وغير الرسمية،

واجتماعاته: فى مصر، وكوبا، وبريطانيا، وفرنسا، وإندونيسيا، وإثيوبيا، وكينيا، والهند... إلى أن اختفت من الصورة، وبخاصة أثناء زيارة الماريشال الرسمية إلى الاتحاد السوفيتى وكوريا والصين عام ١٩٧٧، وتساءل الناس، وأجاب الزوج العجوز: إذا كان هناك خلاف داخل بيته، فهذا أمر عادى يحدث فى كل البيوت.

ثم تسربت أخبار عن حقيقة ما حدث: إن چوڤانكا ـ وهى من أصل صربى ـ ظلت لبضع سنوات مضت تشارك فى تنفيذ تخطيط يشبه المؤامرة من وراء ظهر زوجها لإحلال أصدقائها من الصربيين فى بعض المراكز الهامة والكبرى ـ خاصة فى الجيش ـ محل أبناء القوميات الأخرى. وهذا أمر خطير فى بلد يرقد على بركان ست قوميات يكاد أن يتفجر بين لحظة وأخرى: البوسنيون، والصرب، والكروات، والسلاف، والمقدونيون، والمونتنجريون، إنه خطأ فادح ترتكبه زوجة الماريشال، وهو فى خريف عمره، فى حين كانت هى فى قمة نفوذها وتألقها. إنها تشعل ـ من حيث لا تدرى ـ فتيل حرب أهلية، تَصْطرع فيها أحقاد وتطلعات القوميات المترقبة. إنها جريمة لاتُغتفر. هل قدمت چوڤانكا إلى محكمة سرية كما يزعم البعض؟ ربما كانت هذه إشاعة، لكن الأمر المؤكد، أن الماريشال الزوج المحب، قرر على الفور إبعادها ـ فيما يشبه النفى ـ إلى أحد قصوره قرب بلجراد، ولم يلْتق بها حتى مات إلا مرة واحدة، فى زيارة قصيرة إلى مقر إقامتها. وقبيل وفاته، أرسل إليها باقة ورد، لكنه طوال فترة علاجه

بالمستشفى فى لوبليانا (وقد امتدت إلى عدة شهور قضى منها مائة وعشرين يوماً فى غيبوبة كاملة بعد إجراء جراحة قطعت فيها ساقه اليسرى) . لم يتم لقاء بينهما، ولم يسمح لها بزيارته.

إن الكبار أيضا يخطئون.. ويُضجَرون!

إذا كان الخطأ عن غير قصد، فهو اجتهاد قد يغفر ويصحح، أما إذا كان عن تدبير وقصد، فتلك هى «الجريمة» التى تستحق المساءلة والعقاب.

لم يكن خطأ «تيتو» وحده أنه أجرى «تنقلات» جماهيرية على نطاق واسع ـ سواء بالإغراء أو القهر ـ لتذويب القوميات فى بعض المناطق، وتمييع التفوق السكانى هنا أو هناك. إنه أسلوب النظم الشيوعية والديكتاتورية المتسلطة (المثال الواضح والخطير أيضاً ما حدث فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق والتى توشك أن تنفجر صداماتها العرقية والقومية) .

لكن هذا ما حدث، وترتبت عليه آثار خطيرة. فعلى كُرْه منها ومضض. صبرت بعض شعوب الاتحاد الفيدرالى اليوغسلافى طوال حكم تيتو الذى كان يعرف جيداً كيف يمسك بكل الخيوط ومفاتيح الضغط وصمامات الكبَحْ. لكنها أمست وكأنها قنبلة موقوتة شديدة الاشتعال، تنتظر أن تتفجر مدوية مدمرة فى الموعد الموقوت!

وقد كان...!

(٦)

ميراث مُثقلٌ بالهموم.. والديون

غادر «تيتو» عالمنا الشجىّ الشقىّ عام ١٩٨٠ ، ويوغوسلافيا مقسمة ـ أو بالأحرى منقسمة على نفسها ـ فى ست جمهوريات ومقاطعتين، يجمعها كلها سياسياً ـ من حيث الشكل والتعامل الدولى ـ اتحاد فيدرالى، بالإضافة إلى جماعات عرقية كثيرة منبثة داخل هذا الكيان المحموم.

لماذا «يوغوسلافيا» ؟

إنه عودة بهذا الاسم إلى ما كان يطلق على قبائل تلك المنطقة فى القرن الخامس قبل الميلاد: سلاف اليوجو، أى سلاف الجنوب، الذين يسكنون الأرض ما بين شمال شبه جزيرة البلقان حتى البحر الأسود، تمييزاً لهم عن أبناء الأعمام والأخوال الذين تضمهم قبائل التشيك والبولنديين، الذين هاجروا بدورهم من أراضٍ يسكنها سلافيون آخرون: وهم الروس والأوكرانيون.

عندما غادر الأتراك العثمانيون مناطق البلقان (فى أعقاب حرب البلقان عام ١٩١٢ ـ ١٩١٣) بعد حكم دام نحو خمسة قرون[١]، تركوا وراءهم تراثاً ثقافياً وحضارياً يصعب اقتلاعهما أو الإغضاء عنهما. لكن المطامع والتطلعات الكامنة فى نفوس بعض الأقليات السكانية والشعوب التى يتألف منها الاتحاد الفيدرالى اليوغوسلافى، وجدت متنفساً لها بعد مغادرة الرئيس تيتو هذه الحياة.

إن صربيا (جمهورية الصرب) ضاعفت تقريباً مساحتها ـ بعد رحيل العثمانيين ـ ولم تَقْنع، بل تريد دائماً المزيد، وعلى الأخص: البوسنة والهرسك (هرزجوفينيا).

لم تهدأ الصرب بعد توحد الصرب والكروات والسلاف فى مملكة واحدة بعد الحرب العالمية الأولى يحكمها الملك الصربى «الكنسدر» الذى اغتاله أيضاً صربى من الانفصاليين أثناء زيارته لمدينة مرسيليا ـ الفرنسية ـ عام ١٩٣٤.

ولعل الرجل الوحيد الذى استطاع تجميع شعوب هذه المنطقة ـ المتعادية المتنافرة ـ فى دولة عصرية متماسكة، هو ذلك المحارب الكرواتى القادم من حطام الحرب العالمية الثانية: الماريشال تيتو. إن نجاح «تيتو» ومعاناته القاسية فى تحقيق ذلك، أضْفيا عليه ـ وعلى حزبه

---

(١) لن نتعرض هنا لسقوط الخلافة العثمانية وما فعله مصطفى كمال أتاتورك فهذا يحتاج لدراسة أخرى مستفيضة.

الشيوعى ـ هالة من البطولة، ودفعتاه إلى ذروة القمة بين أبطال الحرب، مما يسر له الحصول على كل شىء وتحقيق أى مطلب فى الداخل أو الخارج. وتناسى الجميع المذابح المروعة التى راح ضحيتها مئات الآلاف من أبناء الأجناس والقوميات.

كان «جوزيب بروز» يعرف تماماً حقيقة ما يجرى على السطح، أو داخل النفوس، وفى أدمغة الشعوب التى ربطها ربطاً متقناً وجريئاً بخيط قلادته. لم يكن الأمر هنا وميض ضربة حظ، بل يشهد الواقع والتاريخ أنه سداد ضربة معلم!

ولكى يُلجم الصرب، ويحول بينهم وبين التسيّد والسيطرة على الدولة كلها، أعطى استقلالاً ذاتياً (حكماً ذاتياً) لكل من: ڤوچوفودينا (وبها أغلبية سكانية مجرية وهى فى الشمال) وكوزوڤو (وبها أغلبية سكانية ألبانية، وهى فى الجنوب). من هنا، يمكن تفسير سلوك الصربيين بعد وفاة تيتو، إذ مزّقوا فى الميادين العامة صوره، بل وارتفعت من بينهم أصوات تطالب بنقل رفاقه من بلجراد (التى تقع فى قلب جمهورية الصرب)!

ها هو ذا الوقت قد حان لتجديد أحلامهم القديمة، وابتعاث روح الثورة والتمرد والطغيان، التى خمدت أثناء حكم تيتو وبعد أن أثارها وأهاجها مبدأ الرئيس الأمريكى «ويلسون» الذى أعلنه عقب الحرب العالمية الأولى عند تصفية الإمبراطوريات القديمة ذات الشعوب

والأجناس المتنوعة المتداخلة: إمبراطورية آل رومانوف فى روسيا، وإمبراطورية أسرة هابسبورج فى النمسا ـ المجر، وأمبراطورية عائلة هوهانزليرن فى ألمانيا. منحت الأغلبية السكانية لشعوب تلك الإمبراطوريات حرية إقامة دويلات مستقلة ـ وفق مبدأ ويلسون ـ بدون التقيد بحدود جغرافية طبيعية، كما أنه ليس لزاماً أن تكون مشتركة فى المعطيات التاريخية، وإنما يكفى فقط الترابط القومى.

وفى كرواتيا، لم يكن الأمر على نحو أفضل. كانت «زغرب» عاصمة كرواتيا تقود مسيرة النمو والتطور الاقتصادى والصناعى فى يوغوسلافيا كلها (السابقة). إن حدائقها الفسيحة الخضراء المزهرة، ومبانيها القديمة الفخمة الباقية على طراز الباروك المعمارى، (ترجع إلى القرنين ١٧، ١٨م)، وشوارعها الفسيحة المشجرة الغاصة بالسيارات، تكسبها ملامح مدينة ڤيينا القديمة.

عندما أعلنت كرواتيا فى عام ١٩٩٠ فتح باب الانتخابات ـ لأول مرة منذ خمسين عاماً ـ تقدم للنزال فى هذه «المعركة» نحو ثلاثين حزباً. والتفّت جبهة المعارضة القوية حول كاتب مؤرخ عجوز (٦٨ سنة) سبق أن زُج به فى السجن وهو «فرانچو تودْچمان». كان الحكم الذى صدر يقضى بحبسه عشرين سنة (لمجرد أنه ألّف كتاباً عن الجاسوسية!) إلاّ أن تيتو خففه إلى عامين اثنين. كان إقبال الكرواتيين عليه ومؤازرتهم له، بسبب إصراره على معارضة الهيمنة الصربية التى

انطلقت من عقالها، وقد ألجمه تيتو ومَنع الحديث إطلاقاً ـ فى عهده ـ عن «صربيا العظمى». كان محور حملات فرانچو الانتخابية يدور حول: «من المحتم علينا أن نفعل شيئاً إزاء هذا الزعم (أى صربيا الكبرى) وإلا فسوف نخرج من اتحاد يوغوسلافيا، إننا لم نعلن الاستقلال بعد، ولكننا نطالب بتجربة الاتحاد الكونفيدرالى[1] (بدلا من الاتحاد الفيدرالى الذى كان قائما). إن تقليل القيود هو وحده الكفيل بزيادة الروابط التى يمكن أن تعيش فى إطارها شعوب يوغوسلافيا». ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد!

لُوبْليانا.. عاصمة سلوڤينيا:

إن هذا الاسم، مأخوذ عن اسم النهر الذى يمر بها «لوبْليانكا». بالرغم من أن عدد السكان بهذه الجمهورية الصغيرة (تقع فى الشمال الغربى مع الحدود الإيطالية والنمساوية) يمثل نسبة ٨٪ من سكان الاتحاد اليوغوسلافى (السابق) إلا أنها كانت توفر ٢٠٪ من مجمل الدخل القومى ليوغوسلافيا، وثلث مجموع الصادرات إلى أوروبا

(١) الاتحاد الكونفيدرالى: اتحاد دول أو ولايات تخضع لسلطة عامة مع الاحتفاظ بحكومة لكل منها، وترتكز السلطة المركزية على نظام للتنسيق بحيث تتخذ القرارات عادة بالإجماع (مثل اتحاد المقاطعات السويسرية). أما الفيدرالى: فهو اتحاد تتنازل فيه الدول أو الولايات أو المقاطعات عن بعض سيادتها ـ جزئياً ـ لسلطة مركزية مسئولة عن استقلال الدولة كلها وحمايتها مع الاحتفاظ ببعض حقوق السيادة الداخلية، خاصة فى سَن القوانين (مثل الولايات المتحدة الأمريكية).

والغرب، ومع ذلك، كان عليها أن تعطى الاتحاد الفيدرالى ـ طوعاً أو كَرْها ـ معظم العائد المحقق لها، بدون أية مراقبة أو مشاركة فى الأوجه التى يُنفق فيها. إنه مبلغ كبير.. وكبيرا جداً، يمثل ٢٧٪ من ميزانية الاتحاد ، وكما قال عضو بغرفتها التجارية «كأننا نلقى بهذه الأموال فى نهر ساقا »!

فى أوائل التسعينيات، بدأ التحرش من جانب الصربيين، فهم يتهمون السلافيين بالهمجية وعدم التحضر، وتكونت «فرق» من شباب الصرب اتجهت فى قوافل بالسيارات إلى لوبليانا تهاجم أهلها، وبدا الأمر كأنّ دولتين متعاديتين تتناوشان! والغريب أن الأصوات فى صربيا ترتفع ـ فى جرأة ـ تتحدث عنه «حقوق الإنسان» و «احترام الحريات»!! وقطعت الصرب علاقاتها التجارية مع سلوفينيا، وألغت أكثر من خمسمائة عقد تجارى وصناعى، وتحفظت على ٢٢٥ مليون دولار كانت لديها لحساب المنتجين السلاف، فرد هؤلاء بالتوقف عن دفع ٤٨ مليون دولار كديون مستحقّة للصرب.

وماذا عن التغير المدوى الذى هز بقوة مجتمعات وشعوب «دول الكتلة الشرقية» حتى من قبل الإطاحة ـ ولو شكلاً ـ بالنظم الشيوعية الديكتاتورية وذلك من قبل انهيار الدولة الأم: الاتحاد السوفيتى؟ يلخص الإجابة عن هذا السؤال «چانيز كوزْيانْشيش» رئيس شركة الطيران السلافية، وهو رجل أعمال، وشغل لعدة سنوات منصباً رئاسياً فى الحزب الشيوعى السلافى. قال: «تغيرت شعارات الحزب، واستحدث

شعار: أوروبا الآن. لسنا نتملص من مسئوليتنا عن الماضى، إننا ندرك جيداً أن الشيوعية تعتبر اليوم صورة سيئة، بعد المذابح التى حدثت فى ميدان تيانانْمين بالصين، وفى تيميسوارا فى رومانيا، وما يحدث الآن فى يوغوسلافيا، وهذا كله يعيد إلى الأذهان تلك الصور القاتمة عن ستالين والستالينية». يضيف إلى هذه الإجابة «جوتش بوشنيك»، رئيس المعارضة الديمقراطية فى سلوفينيا، والذى أمضى من قبل سبع سنوات فى السجن لكتابته مؤلفاً نفسياً به إسقاطات سياسية. يقول: «لم يعد الناس يطيقون سماع أى شىء عن الشيوعية، لم يعد لها مكان ولا عمل، ولم تعد منافسة للحرية. ولكن بعد سنوات وسنوات من نهب الشعب وقهره تحول الشيوعيون فجأة إلى اعتناق مبدأ حرية الانتخاب»!

منذ بضع سنوات، وغالبية الناس فى يوغوسلافيا ـ سابقاً ـ يتوجّسون خيفة من اشتعال نيران حرب أهلية، كانوا يخشون ـ بحق ـ من تدخل العسكريين، وقال بعضهم: «إذا ما حدث ذلك، فإنه سيكون إيذاناً بزوال يوغوسلافيا». وقال غيرهم: «يستطيع الجيش أن يحتل بيوتنا ومواقعنا. لكنه لن يستطيع مطلقاً أن يصنع اقتصاداً ناجحاً. لن يستطيع أبداً صنع حياة لنا». وسرعان ما اشتعلت الحرب الأهلية!

(٧)

بلد المذابح واللا إنسانية

أصبح حكم الصرب في السيطرة والسيادة تجسيداً لصورة شبح أسطوري مصاص للدماء، وهي دماء أبناء الجمهوريات والمقاطعتين اللتين كانتا يطلق عليهما يوماً: يوغوسلافيا.

قبيل منتصف عام ١٩٩١ بدأ الصراع الدموي بين الصرب ـ البادئة بالعدوان ـ والكروات. وأغمضت الولايات المتحدة عينيها عما يحدث طوال عام، وكذلك تشاغلت أوروبا بأمورها ومشكلاتها الداخلية، متعللة بأن شعوب يوغوسلافيا المتناحرة سوف تثوب حتماً إلى رشدها وتكف عن هذا العراك. هذا، في الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة وأوروبا معاً، ضالعتين في إحكام الضغط الخانق على شعب العراق، بعد الفراغ ـ عسكريا ـ من حرب الخليج، وإجلاء الجيش العراقي من أرض الكويت.

وامتدت المذابح والمعارك إلى البوسنة وعاصمتها سراييفو، فأصبح مجال الحرب الأهلية الطاحنة مثلث الأبعاد: الصرب/ كرواتيا/ البوسنة ـ الهرسك. ومن عجب لا يخلو من تفطن: أن أجهزة الإعلام والتوجيه السياسى والعمليات العسكرية الغربية ـ بلا استثناء ـ حولت هذا المثلث الطبيعى الجغرافى إلى: الصرب/ كرواتيا/المسلمين! وكالعادة أخذنا ـ نحن العرب والمسلمين ـ هذا «التقسيم» أو التضليل كما هو ولم نُفكر فى صحته أو مغزاه وحتى الأمم المتحدة ومؤسساتها.

نحن نفهم أن «الإسلام» عقيدة وشريعة، عبادة ورسالة، فالإنسان ـ أيّا كان جنسه أو وطنه أو لونه وأصله وأرضه وقومه وعشيرته ـ قد يكون مسلماً أو لا يكون (كما قد يكون نصرانياً أو بوزياً أو كافراً بالعقائد والأديان). فهو يؤمن بالإسلام ويلتزم بشريعته وأحكامه، ويؤدى عباداته ويدعو برسالته، بدون أن يمنعه ذلك من أن يكون عربياً أو هندياً أو إيطالياً أو صينياً، وبالتالى صربياً أو كرواتياً أو بوسنياً أو مقدونياً.. فلماذا إذن يُمَـيَّـز «المسلمون» بالتحديد فى هذا التقسيم المفْتَعَل. لو كانت حرباً أهلية دينية أو عقائدية، لكان الأوْلى أنْ يُقال: إنها حرب أو صراع الأرثوذكس (الصرب)، والكاثوليك (الكروات)، والمسلمين (البوسنيين). وهذا أيضاً تقسيم خاطىء وتعبير مضلل: فمن الصرب مسلمون، ومن الكروات مسلمون، ومن السلاف مسلمون، ومن المونتنجرو مسلمون. ولم يهب رجال ونساء وصبية المسلمين فى البوسنة والهرسك دفاعاً باسلاً عن أرضهم وأموالهم وأعراضهم بدافع

إعلانهم الحرب على الأورثوذكس ولاالكاثوليك. صحيح ـ وهذا واجب وحق ـ أن الإسلام أَذِنَ للذين يُقاتلون ظلماً وعدواناً أن يُقاتِلوا الظالم الغاصب المعتدى، حتى النصر أو الشهادة. لكن هذا المقاتلَ ـ فى نفس الوقت ـ صاحب أرض، وتاريخ، وحضارة متصلة الحلقات، متنوعة الروافد التى تصب فى نهر الإسلام. إن أسبانيا التى شربت من سلسبيل الإسلام، وتغذت من رحيق الإسلام طوال ثمانية قرون، ثم عادت وأبادت على أرضها معظم معالم الإسلام، وألهبت بمحاكم التفتيش ظهور أبنائها المسلمين، وشنتها حرباً لا هوادة فيها على كل ما يتصل بالإسلام وأهله، لا يمكن أن تُسقط من حسابها ولا من تاريخها هذه القرون الثمانية (والتى كانت أزهَى وأضوأ فترات تاريخها كله) مهما جَحدت وأنكرت وشوّهت وافْترت. ومن مغالطات المؤرخين أنهم أطلقوا تعبير «العرب المسلمين» على الضحايا والمطرودين من أرضهم وديارهم فى أسبانيا والبرتغال، وفى الحق هم أسبانيون ـ أو معظمهم على الأقل ـ وبرتغاليون، لكنها كانت حرباً «دينية» كئيبة كريهة معلنة صريحة ضد بالإسلام ومن يدين الإسلام.

فهل يعيد التاريخ نفسه؟ وهل هذا بداية تُمهد لطريق يتسم بالتعاسة والشقاء والإفناء مع بداية القرن الحادى والعشرين؟؟

عندما كانت فرنسا تَعتبر تونس والجزائر والمغرب جزءاً لا يتجزأ من أراضيها (قبل استقلال تلك البلاد)، وجنّدت فرقاً عسكرية بأكملها

من أبناء هذه المناطق للمشاركة جنباً إلى جنب مع المقاتلين الفرنسيين أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية، لم تطلق عليها «الفرق الإسلامية» أو جيوش المسلمين، وإنما كانت تسميها «الفرق الجزائرية الفرنسية» أو «المغربية الفرنسية» وهكذا. وكانوا جميعاً من المسلمين!

قد يقول قائل: إن الإسلام لا يعرف التقسيمات الجغرافية ولا يقر الفواصل الإقليمية فأمة الإسلام أو المسلمين واحدة، هذا صحيح من وجْه، ولكن الصحيح أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم ـ كما ورد ثابتاً صحيحاً موثّقاً ـ بعث معاذ بن جبل إلى «اليمن»، وأرسل أبان بن سعيد عاملاً على «البحرين»، واستعمل صلى الله عليه وسلم عمرو ابن العاص على عمان (ومات النبى وهو أميرها) ووردت أحاديث تشير إلى تلك المناطق الإسلامية بأسمائها المعروفة. ثم كان فى عصر الخلفاء الراشدين ـ رضى الله عنهم ـ ولاة وقضاة وأمراء جيوش وعمال خراج لكل إقليم بذاته: مصر، والشام، والعراق، وخراسان، وأذْربيجان، وإفريقية، والأندلس.. وهكذا.

ونعود إلى البوسنة ومأساتها المعاصرة، ومأساة بلاد الإسلام إزاءها.

تبلغ نسبة الصربيين نحو الثلث بين سكان البوسنة والهرسك، فوضعوا مخططاً يهدف إلى زيادة هذه النسبة إلى الثلثين، فلما فشل أسلوب حكم يوغوسلافيا جماعياً بعد موت تيتو (بأن يتناوب رئاسة الاتحاد واحد من رؤساء الجمهوريات الست فى الاتحاد الفيدرالى)

أعلنت جمهورية الصرب ـ صراحة ـ أنها سوف تضم إلى أراضيها، كل المناطق التى تعيش فيها أغلبية صربية، سواء أكانت فى (البوسنة ـ الهرسك) ، أو كرواتيا، أو غيرهما. فأسرعت (البوسنة ـ الهرسك) تعلن استقلالها وتطلب انضمامها إلى الأمم المتحدة (على غرار ما فعلته دول الكتلة الشرقية الشيوعية التى أسرعت أمريكا ودول أوروبا الغربية بمؤازرتها والموافقة على قبول عضويتها) . إلا أن البوسنة ـ الهرسك لم تجد من يساندها إلاَّ ألمانيا التى اعترفت أيضاً باستقلال كرواتيا وسلوفينيا وأحجم الجميع عن سماع صوتها أو صراخ آلاف الضحايا والجرحى بها، كل يوم!

لماذا ؟!.. مجرد سؤال!

ظهر فى المجال السياسى تعبير: «التطهير العِرْقى ethnic cleaning» ، واستخدمته وسائل الإعلام الغربية باستفاضة، وأيضاً ـ للأسف ـ أمين عام الأمم المتحدة بطرس بطرس غالى، فى تصريحاته، والمفروض أنه «أمين» على حقوق جميع الأمم والشعوب خاصة المغلوبة على أمرها، والتى تتعرض لإيذاء الطامعين والمتربصين.

إنه تعبير جد خطير، فهو يتيح لكل طاغية جبّار متطلع، أن يتجاوز الحدود والقوانين والأعراف الدولية لسحق وابتلاع من يعتبرهم «دخلاء» على قومه وجنسه وما يؤمن به ويعتقد، وهل فى كل بلاد

العالم ـ تقريبا بلا استثناء ـ دولة تخلو من تجمع أجناس وأعراق وطوائف وسلالات، لكلٍ منها تاريخ ولغة وثقافة وموروثات، ولكنها ـ مهما قلت عدداً أو ضعفت قوة، لها حقوق متساوية مع كل الذين يسكنون أرض الدولة ويصنعون نسيج شعبها، اللهم إلا فى إسرائيل؟!

هل نتوقع إذن أن تشتعل نيران الحرب الأهلية الطاحنة المدمرة فى كل بلد بحجة أن الأقوى والأكثر عدداً فيها يريد «تطهيراً عرقياً» ؟ ألم تكن هذه إحدى ادعاءات هتلر بتفوق وسيادة الشعب الآرى (الألمان) فجرَّ العالم كله إلى حرب عالمية راح ضحيتها الملايين، وبلغت خسائرها المادية بلايين البلايين؟ ثم.. أى «عرق» فى عالم اليوم نقىٌّ مصفىً خالٍ من الاختلاط والتزاوج والامتزاج، مهما زيف وادعى المبطلون؟ (يدخل فى ذلك طوائف اليهود)[1].

باسم «التطهير العرقى» المزعوم، فرَّ أكثر من ثلاثة ملايين من البوسنيين ـ وهم الغالبية ـ والكرواتيين من المذابح إلى الدول المجاورة والغرب، وعند الحدود، تاركين أرضهم وأهليهم وأموالهم وتاريخهم،

---

(١) نوضح هنا حقيقة غائبة عن الكثيرين فى الشرق والغرب: وهى أنه ليس يوجد أمة من الأمم تسمى «الأمة الساميّة»، وإنما هناك مجموعة من اللغات لشعوب فى الشرق الأوسط، هذه اللغات بينها صلة قرابة تدل على أنها ترجع إلى أصل لغوى واحد، أما الساميّة كجنس بشرى، فهو اصطلاح أطلقه لأول مرة العالم النمساوى «شلوزر Schlozer» عام ١٧٨١ على أبناء سام بن نوح ـ عليه السلام ـ وهو اصطلاح مبهم عارضةهكثير من العلماء المتخصصين.

وحُمل آلاف الأطفال الأبرياء ـ غالبيتهم أيضاً من البوسنيين ـ إلى دول تتلهف على زيادة أعدادها بالتبنى (أى بأطفال منتجين جاهزين!) وكانت تلك الدول تشتريهم من البرازيل والمكسيك وبعض الدول الافريقية والآسيوية. الآن يأتيهم ـ إلى عتبات بيوتهم ـ أطفال أصحاء مجاناً.. بلا مشقة ولا مقابل!

إنه أكبر تحرك جماعى فى أوروبا ـ بسبب القهر والظلم والذعر ـ منذ الحرب العالمية الثانية. ومن منظماته الدولية، وقواه العظمى، وقياداته، تنفذ الصرب خطتها الهادفة إلى الإستيلاء على ٧٠٪ من أرض البوسنة ـ الهرسك، و ٣٠٪ من أرض كرواتيا. إنه الحلم القديم الكبير: «صربيا العظمى» يتحول شيئاً فشيئاً ـ بالدماء والدمار والغصب ـ إلى حقيقة برغم أنف الجميع، أو قل: بعدم اكتراث البعض، وتخاذل وهوان البعض، ومؤازرة البعض من وراء ستار! ألم يصرح علانية الجلاد الدموى «سلوبودان ميلوفيتش» رئيس الصرب «بأن العالم لن يشعل حرباً بسبب محافظتنا على حقوق الصرب. وإن أوروبا لا تريد الإسلام» ؟!

وصدّقت مجلة «Time» الأمريكية على هذا الاتجاه بقولها[١]: «كان من الممكن ـ كما حدث مع صدام حسين ـ أن يـردَع ميلوفيتش بالقوة. لكن لا أحد خارج يوغوسلافيا كان ـ أو لا يزال ـ

(١) ٨ يونيو ١٩٩٢.

مستعداً للدخول فى حرب معه. إن التدخل العسكرى سوف يسبب خسائر ثقيلة، ربما كانت هناك مذابح وانتهاكات لا إنسانية، ولكن على خلاف محاولة العراق اغتصاب بترول الكويت الوفير، فإن استلاب الصرب العدوانى لحقوق البوسنيين والكروات لا يهدد المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة أو أوروبا بدرجة تكفى للمخاطرة بإرسال جيوش».

ثم تضيف المجلة:

«إن إقرار الأمم المتحدة بفرض قيود - حظر - على الواردات والصادرات الصربية - عدا الأطعمة والأدوية - قد يجمد مصالح الصرب ويقطع اتصالها الجوى بالعالم، ومع ذلك، فإن المفتاح الرئيسى لهذا الخطر يكمن فى منع وارداتها من زيت البترول الذى هو دم الحياة بالنسبة للصناعة وتحركات الجيوش فى عالم اليوم، لكن هذا المنع لن يوقف تدفق البترول إلى الصرب، لأن أكثر من نصف احتياجاتهم يأتى من روسيا والصين، وهما غير راضيتين عن قرار هذا الحظر، بل إن بعض الدبلوماسيين البريطانيين يرجّح أن البترول ربما يتسرب إلى الصرب من رومانيا، أو من الشرق الأوسط عبر اليونان التى لها علاقات تجارية قوية مع صربيا»!

اليوم.. يمضى نحو عامين على هذا الصراع أو الحرب الشعوبية

العقائدية معاً.. وفيها استخدم الصربيون ـ خاصة ـ أبشع وأحط الأساليب التى فَجَّرَهَا الحقد والجشع والجبروت والظلم، والتى وصفها وزير خارجية فرنسا علانية بقوله: «إن أقل ما يقال عنها إنها تستخدم أساليب لا إنسانية بشعة».

وجد الصرب فرصة متاحة ـ بمساندة ودفع دول وسياسات ومؤسسات ومذاهب ومصالح فى الشرق والغرب معاً ـ للعدوان الذى لم يقتصر على القتل والتدمير والغزو، ولم يعمد إلى المواجهة الشجاعة الرجولية (كما حدث فى حرب أكتوبر مثلاً) وإنما تجاوز كل المبادىء والأعراف والقوانين الإنسانية، والدولية بدون حياء أو خجل، والعالم كله يشهد ويسمع وهو يقترب من القرن الحادى والعشرين بعد الميلاد، وليس قبله! بل وتصر الدول الكبرى على حظر إمداد «يوغوسلافيا» بالسلاح، والضرر فى هذا الحظر يقع على جمهورية «البوسنة ـ الهرسك» وحدها، وإنهم ليَكْتمون الحق وهم يعلمون!

لقد هدم الصرب ـ بالمدافع والطائرات ـ البيوت والمتاحف والمساجد والمدارس والمستشفيات والجسور ومحطات الماء والكهرباء، عمداً وتكراراً. وذبحوا ـ نهاراً ـ نائب رئيس جمهورية الهرسك وهو فى عربة مصفحة للأمم المتحدة. وقتلوا النساء، والحوامل، والأطفال، غير ما فعلوا بالشباب والأسرى، ثم تنبه العالم أخيراً إلى «معسكرات» الاعتقال والتعذيب» وما يجرى فيها، وهو يفوق ما فعل چنكيز خان، وشارلمان،

وماو، وستالين، وهتلر، وفرديناند وإيزابيلا (بالأندلس).. واكتشف «المراقبون» معسكرات اعتقال للنساء البوسنيين، اغتصب «جنود» الصرب «الشجعان» فيها أكثر من ٢٠، وقيل ٣٠، وقيل ٥٠ ألف امرأة مسلمة، بعضهن أقل عمراً من ١٤ سنة(*)!

(*) للعبرة.. وللحق.. وللمقارنة:

فى سنة ثمانى عشرة ومائتين هـ. عزم الخليفة المأمون على «تأديب» وردع الروم (شمال وغرب الدولة الإسلامية) لاعتدائهم على بعض المدن بالثغور. يقول المسعودى فى «مروج الذهب»: «فدعاهم المأمون إلى الإسلام، وخيّرهم بين الإسلام والجزية والسيف. فاجابه خلْق من الروم إلى الجزية واختار ملك الروم الحرب.

«ولما توجه المأمون غازياً، جاءه بالطريق رسول ملك الروم فقال له: إن الملك يخيّرك بين أن يرِد عليك نفقتك التى أنفقتها فى طريقك من بلدك إلى هذا الموضع، وبين أن يُخرج كل أسير من المسلمين فى بلد الروم بغير فداء ولا درهم ولا دينار، وبين أن يعمر لك كل بلد للمسلمين مما خرّبت النصرانية ويرده كما كان، وترجع عن غزاتك. فقام المأمون ودخل خيمته، فصلى ركعتين، واستخار الله عز وجل، وخرج، فقال للرسول: ـ قل له: أما قولك تردّ نفقتى (أى أموالى) فإنى سمعت الله تعالى يقول فى كتابنا (القرآن) حاكياً عن بلقيس: «وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرّجع المرسلون. فلما جاء سليمان قال: أتمدُّوننى بمال؟ فما أتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون». وأما قولك: تُخرج كل أسير من المسلمين فى بلد الروم، فما فى يدك إلا أحد رجلين: إما رجل طلب الله عز وجل والدار الآخرة، فقد صار إلى ما أراد. وإما رجل يطلب الدنيا فلا فكّ الله أسْره. وأما قولك إنك تَعمر كل بلد للمسلمين قد خربته الروم، فلو أنى قلعتُ أقصى حَجر فى بلاد الروم ما اعتْضت (أخذت العوض) بامرأة عثَرتْ عثْرة فى حال أسْرها فقالت: وامحمداه! وامحمداه! عُد إلى صاحبك فليس بينى وبينه إلا السيف. يا غلام: اضرب الطبل (أى أذّن بالخروج للقتال).

«فرحل، فلم ينّثن عن غزواته حتى فتح خمسة عشر حصناً (أى مدينة) وأدب ملك الروم وقومه..!!!

على كُره منا نسجل هذه «الوثيقة» المفزعة المخجلة التى نشرتها مجلة «بارى ماتش Paris Match» الفرنسية ـ الطبعة الدولية ـ فى ٢٨ يناير ١٩٩٣. وهى مفزعة: لأنه ما كان أحد يتصور ولا يتوقع أن تفعل ذلك دولة أو جماعة تريد أن تأخذ مكاناً متساوياً فى مجتمع الدول ونحن على عتبات القرن الحادى والعشرين، وتدعى أنها تتمسك بالأورثوذكسية وتسير على النهج القديم القويم للمسيح، عليه السلام. إنها مفزعة، عندما نتخيل الأهوال والمهانة والوحشية التى تعرض لها البوسنيون ـ والنساء خاصة. فى «معسكرات الاعتقال»، واستمرار ذلك أكثر من عام ونصف، وحكام وقادة وزعماء العالم «المحتضر» الذى يوضع له الآن «نظام جديد» يسمعون ويشهدون ـ والأمم المتحدة مع مجلسها «الأمنى» ترقب وتسوّف وتمد فى حبال الاجتماعات والحظر والترتيبات والبيانات وتنفيذ القرارات.. ثم يكاد يخفت صوت المسلمين ـ قادة وشعوباً ـ أو يصدر محشرجاً واهناً لا يضر ولا ينفع! وهذه «الوثيقة» ـ التى دوَّنها كاتب فرنسى غير مسلم ـ مخجلة فى مضمونها، لأنها تتناول أحط الأساليب الخسيسة التى قلّ أن يمارسها أناس عاديون، فضلاً عن «مقاتلين» يسعون إلى تحقيق هدف «قومى» وهم يعلمون علم اليقين أن الأسرى أو المعتقلين أو المخطوفين الذين بين أيديهم: أبرياء، ضعفاء، سجناء... لأنهم أطفال ونساء! هل يكفى أن يحاكم هؤلاء «الجنود الشجعان» وقادتهم ورئيس جمهوريتهم أمام محاكم خاصة مثل محاكم نورمبرج أو حتى محاكم التفتيش؟ وأى

حكم يصدر يناسب الجرم أو الجرائم التى ارتكبوها عمداً وإصراراً وبخساسة؟!

ها هو ذا التحقيق الميدانى الذى أجراه ـ برغم الأخطار والمحاذير ـ الكاتب الصحافى «روچر أُوك»، وهو بمثابة «وثيقة» دامغة..

تحت عنوان: «البونسيات المغْتَصبات ـ إنهن عشرات الآلاف قررن التخلص من الحمْل الذى سبّبه الصربيون الأوغاد». وقال:

يبدو أنها كانت شابة جميلة. أما الآن، فوجهها خالٍ من تأثير الزمن ـ إن الرعب الذى تعرضت له فى الشهور الماضية لن ينمحى من الذاكرة مهما امتد العمر وتوالت الأيام. تحول لون شعرها الأسود الفاحم إلى الأبيض الجليدى. وغطت التجاعيد وجهها قبل الأوان. وعلى الرغم من الغطاء الرمادى المنسدل على كتفيها، فإنها ترتجف من البرد القارس وتسعل فيهتز كل جسمها كما لو كانت ـ عجوزاً متداعية.. رمقتها بنظرة متسائلة، فأسرعت تمد يدها المرتعشة وبها ورقة صغيرة عليها كلمات ترجمتها لى مرافقتى الكرواتية الشابة إلى اللغة الفرنسية: «الاسم: خديجة باليدچ. الميلاد: سنة ١٩٥٢ فى البوسنة ـ الهرسك. مسلمة. عُذِّبتْ واغتصبتْ فحملَت ـ بحاجة ماسة إلى الرعاية». وفى طرف الوريقة توقيع غير واضح لطبيب.

كانت تجلس شاردة على مقعد بسيط فى بهو بارد كغرفة المشرحة، داخل مبنى الصليب الأحمر العالمى بمدينة «كارلوفاك» الكرواتية. من

الواضح أنها لا تكترث على الإطلاق بالغادين والرائحين من الرجال والنساء والأطفال الذين ترتسم على ملامحهم أشد مظاهر الإرهاق والهزال والاستياء. إنه مبنى قديم متهالك لإحدى وحدات الجيش اليوغوسلافى السابق، وقد تحول إلى مقر للجنة العليا للاجئين، التابعة للأمم المتحدة، خصص جانب منه لاستقبال العابرين (ترانسيت) من السجناء المعتقلين الكروات ومسلمى البوسنة الذين أطلق سراحهم.

تبعد «كارلوڤاك» عن مدينة زغرب بنحو خمسين كيلو متراً، كانت من قبل مدينة صغيرة هادئة، إلى أن أصبحت منذ شهر أكتوبر المحطة الأولى لأولئك التعساء الألفين الذين سبق اعتقالهم لفترة تتراوح بين أسبوعين وشهر أو أكثر، وتعرضوا للتعذيب والجوع على أيدى الصرب داخل معسكرات الاعتقال الموجودة على أرض البوسنة.

على مقربة من المدفأة بمكتب الاستقبال، جلست خديجة، تتطلع إلى النافذة، ونظراتها الشاردة تؤكد أنها لا تبصر شيئاً مما يجرى فى الميدان الفسيح الذى يطل عليه المبنى، وهو غاص بالناس المتشحين بالسواد، برغم البرد القارس والضباب الكثيف. قبيل بداية العام الجديد، تم إطلاق سراح ألف معتقل آخرين. كل منهم يرتدى جلباباً أخضر وأزرق، قدمته منظمة الأمم المتحدة. هنا، بين البكاء والصراخ وأيضا الفرح، يلتقى رجال بزوجاتهم وأطفالهم بعد فراق مأساوى دام بضعة شهور. فهذا أب حليق الرأس تماماً، يمد يديه المرتعشتين نحو زوجته

ليأخذ منها طفله الرضيع، ثم يضمه إلى صدره.

قالت خديجة: «يخجلنى أن أحكى عن الأيام المريرة التى عشتها، وما كابدت فيها». كانت تتحدث بصوت خافت وهى مطرقة الراس، عيناها إلى الأرض. الجميع بالغرفة من العاملين بالصليب الأحمر، مشغولون بأعمالهم، فلم يلق أحدهم بالاً لما دار بيننا من حوار، فى حين راح مندوبون سويسريون وألمان يصخبون باتصالات تليفونية متوالية لمعرفة موعد وصول الفوج التالى من المطلق سراحهم.

قالت خديجة: «فى أواخر شهر مايو، أقبل التشتْنيك (ميليشيا الصرب) إلى قريتنا القريبة من «بنچالوقا»، وهم يطلقون فى الهواء أعيرة متوالية من مدافعهم الرشاشة. ثم أجبروا الأهالى على الخروج من بيوتهم إلى الشارع - ثم قذفوا البيوت بالقنابل فاشتعلت كلها على الفور.. حاول الأهالى المقاومة، ولكن ماذا يفعلون بدون أسلحة لديهم؟ إن القلائل الذين كانوا يملكون بنادق رحلوا بعيداً إلى الجبهة. انتقى جنود الصرب نحو ثلاثين من الرجال العزّل وأخذوا يضربونهم أمامنا بوحشية وكأنهم يعذبون حيوانات برية».

جمعوا الرجال الأصحاء، وكان من بينهم زوج خديجة، وجروهم حفاة إلى مكان مجهول، وانقطعت بذلك أخبارهم، مثلما انقطعت عن خديجة من شهور أخبار ولديها الكبيرين منذ أن سافرا للقتال مع جيش البوسنيين. على فترات متقطعة كانت النساء بالقرية يسمعن

وابلاً من طلقات الرشاشات يصحبها صراخ مفزع. بقيت وحيدة مع أطفالها، وأصغرهم عمره اثنا عشر شهراً. حاولت جاهدة أن تطفيء النيران التى اشتعلت فى بيتها والتهمت بقراتها ودجاجاتها.. ظَل النساء بالقرية بمفردهن مع أطفالهن مدة يومين فى مساكن متفحمة، ولا يدرين ماذا يفعلن، ثم أقبلت قافلة من السيارات الصاخبة، أسرع مَنْ بها من «الرجال» لإخراج النساء المذعورات عنوة: «بينما كنت أرضع طفلى الصغير، اندفع أربعة من التشيتنيك المسلحين وهم فى حالة سُكْر بَيِّنٍ، وألقوا بأنفسهم واحداً تلو الآخر فوق ابنتى «أميرة» ذات الخمسة عشر عاماً» !!

دافعتهم الفتاة المسكينة وهى تبكى وتصرخ وإخْوتها وأخواتها الأطفال مذعورون. حاولت الأم أن تتدخل لحمايتها، ولكنها تلقت ضربة شديدة من عصا غليظة أدْمت رأسها وأفقدتها الوعى. ثم سحبوا الفتاة وهى أقرب إلى الإغماء، وألقوا بها فى سيارة نقل عسكرية مكتظة بأكثر من خمسين امرأة أكبرهن فى سن الخمسين وأصغرهن فى الرابعة عشرة!

قالت خديجة وهى تَجْهش بالبكاء: «اصطحبوا هؤلاء النسوة لاغتصابهن. أما من بقى فى القرية من جنود الميليشيا فقد جمعوا فى الطريق كل من بقى من السكان، وساقوهم حفاة تحت تهديد السلاح، ومن لم يستطع المشى من المسنين والمرضى، ذبحوهم ذبحاً

بالسكاكين أمام أعين الجميع».

بعد ذلك بأيام، التقت خديجة بأطفالها فى مركز للانتقاء والفرز يقع أيضاً فى دائرة «بنچا لوقا». ثم شُحن نحو أربعمائة شخص ـ غالبيتهم من النساء والأطفال ـ فى عربة قطار من عربات نقل الحيوانات.

قالت خديجة: «استرجَعَت ذاكرتى مناظر من أفلام الحرب العالمية الثانية وقطارات النازى التى كان يتكدس فيها المقبوض عليهم وهم يُساقون إلى معسكرات الموت.. ظل القطار يجرى دائراً حول البوسنة طوال أربع وعشرين ساعة، لم يقدَّم فيها طعام ولا ماء إلى الأبرياء المعذَّبين فى عربة الهلاك. مات كثير من الأطفال الرضع خلال الرحلة، وطوال الرحلة، كنا وقوفاً متحاشرين، أو نياماً على القش، نقضى حاجتنا فى مكاننا، إذ لا مفر، ولا يُوجد مرحاض»!

فى البداية، نُقلت خديجة وأطفالها وشركاؤهم فى مسيرة العذاب إلى معسكر «مانچاكا» وكان مزرعة تقع فى أقصى الشمال من البوسنة قرب الحدود الكرواتية. مع مطلع صيف عام ١٩٩٢ اختار الصربيون ١١٥ مزرعة وحظيرة مثل هذا المعسكر بالمنطقة ذاتها، وزجوا فيها بنحو ١٣٠ ألفاً من السجناء والمعتقلين. فكانت «مانچاكا» من أوائل معسكرات الاعتقال التى اكتشفتها الصحافة العالمية، وزارها ممثلو الصليب الأحمر.

استخدمت حظائر الماشية كعنابر وزنزانات لإقامة المعتقلين، وأحيطت بالأسلاك الشائكة والألغام، وتم عزل الرجال عن النساء والأطفال، وكان التعذيب ـ بكل أشكاله وأدواته ـ وإطفاء السجائر فى الأجسام، أمراً يحدث باستمرار وبصورة تلقائية.

قالت خديجة: «لم نكن نأكل إلاّ أقل القليل: قطعة من الخبز لستة أو سبعة أشخاص، وأحياناً طبقاً واحداً لهذا العدد، به بقول أو أرز. أما وسائل الصرف الصحية فمعدومة تقريباً. وسرعان ما تتجمع النفايات ـ مع البراز ـ ولا تجد من يحملها..»!

ثم كانت ذروة المأساة، عند مجيء الصرب فى كل ليلة، للبحث الدورى عن النساء والفتيات لاغتصابهن فى قاعة مجاورة.

قالت خديجة: «لقد فعلوا ذلك مع فتاة عمرها ست سنوات! هذا غير متصوَّر. إننى أشعر بالخجل. لقد اغتصبنى عشرات «الرجال» عشرات المرات. وكان أسلوبهم الذى لا يتغير هو ضربنا بهراوة أو بقضيب معدنى قبل الاعتداء الوحشى علينا. والأدهى من ذلك وأمر، شعورى بأن أطفالى سيدركون ما يفعل بأمهم».

كم بقيت خديجة فى «مانچاكا»؟ شهرين.. ثلاثة؟ لم تعد تذكر جيداً. لقد فقدت الإحساس بالزمن. بعدها نقلت مع أطفالها إلى معسكر اعتقال آخر، فى البوسنة أيضاً. بمنطقة الصربيين حيث يوجد نحو ثلاثة آلاف من المعتقلين. هنا أيضاً تكدس المسنون والنساء

والأطفال داخل عشش من الخشب، معظمهم كان يرقد على الأرض، والقليل المحظوظ من يتمكن من الحصول على وسادة من القش.

إنه الخريف، والليل بارد ثقيل الوطأة. واختلاط كامل بين الرجال والنساء، والأطفال إما مرضى لا يتحركون، أو يكاد يقتلهم الهزال وهم ملطخون بالأقذار ـ ومنها البول والنفايات الآدمية المكومة ـ التى تملأ المكان. والطعام دائماً لا يكفى، ولا يتحسن، مع استمرار التعذيب، والكىّ بالسجائر المشتعلة، والاغتصاب، والقتل.

قالت خديجة: «أذكر أنهم ـ أى الحراس الصرب ـ جمعونا ذات يوم فى ملعب لكرة القدم وتركونا لساعات وساعات فى العراء، وكان يحلو لهم ـ للتسلية ـ أن يضربونا كلما مروا بنا، حتى الأطفال لم يسلموا من ضربهم برغم دفاعنا المستميت عنهم».

تحسنت الأحوال قليلا بعد زيارة المسئولين بمنظمة الصليب الأحمر ومعهم فريق من الصحافيين.

قالت خديجة: «نقلونى إلى معسكر آخر فى «جاشوكى» حيث فحصنى طبيب، وأخبرنى أننى حامل فى توأم.. من المستحيل عندى أن أُبقى على هذا الحمْل. أفلحت بنفسى فى التخلص من الحمل بأن أكلت بعض الأعشاب السامة الموجودة بأرض المعسكر. ثم أعادوا اغتصابى بالمعسكر، وأصبحت حاملا مرة أخرى، لم أفلح فى

إجهاضه، وتأخر بى الوقت لكى أفعل شيئاً، لكنى قررت الاستغناء عن هذا المولود الذى جاء قسراً من وحش صربى».

خيم الهدوء لفترة قصيرة على مكتب الصليب الأحمر بعد خلوّه من الناس. أخذت الثلوج تتساقط فى الخارج. بالرغم من حرارة المدفئة، إنتابت خديجة قشعريرة جعلتها تتدثر بملحفة. أقبلت المسئولة عن مركز «كارلوڤاك» واسمها: «السّاندرا موريلى». إنها شابة إيطالية تضع نظارة وشعرها مجعد، وتقوم بأول مهمة تابعة للصليب الأحمر الدولى من خلال منظمة كاثوليكية للإسعاف. قالت لى: «لست أدرى ماذا أفعل. إن هذه السيدة (خديجة) بحاجة إلى علاج نفسى أكثر من جسمانى، إنها بحق منهارة مكلومة».

ليس فى مقدور «الساندرا» وزميلاتها إلاّ تقديم الإسعافات الأولية والمساعدات المبدئية العاجلة من المواد والطعام. وتابعت حديثها: «نجحت بالأمس فى تحديد مكان «أميرة» ابنة خديجة، أحاول نقلها قرب سراييڤو لأحد السجون العشرين التى أقامها الصرب! ويسعى الصليب الأحمر إلى الإفراج عنها بطريقة متوارية لتبادل المسجونين والأسرى، ومن حسن حظ خديجة أنها تلاقت أخيرا ـ هنا فى كارلوڤاك ـ مع زوجها وكل أطفالها. وليس هذا متاحاً لكثيرين»!

فى حى «دانية» فى ضواحى كارلوڤاك، تم تجميع نحو خمسين أسرة فى مبنى قديم كان مخصصا للعزاب: فى حجرة منعزلة بين

حقول البقول، تسكن الآن مؤقتاً أسرة خديجة، مساحة الحجرة عشرة مترات مربعة، تقيم فيها أربع أسر معاً. بالسقف فتحة تبدو منها السماء الرمادية نهاراً، المظلمة ليلاً. إنها ساعة تناول العشاء. شريف، أصغر أبناء خديجة منهمك فى قضقضة رِجْل دجاجة، نظراته الحزينة متعلقة بها، فى حين يلتهم إخوته طعامهم من صحفة بها قطع لحم الضأن فى كمية من الحساء. ليس بالحجرة منضدة ولا كراسى، فالمكان ضيق لايتسع. فى نهاية الممر، مطبخ صغير ومغسلة. أدار زوج خديجة ظهره وهو يأكل فى صمت. لم ينطق بكلمة، يلبس سروالاً بالياً، وتجاوز فى العمر الستين. أحد ذراعيه أصيب بالشلل. قالت خديجة: «لقد عذبوه بقسوة، وتهتك ذراعه من تأثير إطفاء السجائر المشتعلة بكثرة فيه» !

لا يبدو أن بالأطفال إصابات خطيرة. لكن المؤكد، أنهم رأوا مناظر وأشياء رهيبة مفزعة، ما كان يجب أن يشاهدوها قط. ولن تمحى من ذاكرتهم أبداً.

إن صور الحرب والمعارك، وإلقاء القذائف على سراييفو العاصمة المحاصرة، ربما طفت على السطح فتراجعت قليلا من ذاكرة الناس ـ والعالم ـ مأساة الاغتصاب. إن ممارسته المنتظمة والمستمرة من جانب «المقاتلين» الصرب هو فى زعمهم من استراتيجيتهم فى التخويف: فمن أجل «التطهير العرقى» يريد الصرب إرهاب المسلمين البوسنيين وإصابتهم بالانهيار النفسى، لإجبارهم على مغادرة بيوتهم وأراضيهم.

وطبقاً لتقارير الكنيسة الكرواتية ومنظمات الإغاثة فى زغرب، فإن عدداً يتراوح بين عشرين وثلاثين ألف امرأة من أسرى المعتقلات الصربية، هم الآن فى فترة الحمل! فى ١٧ ديسمبر الماضى (١٩٩٢) اعتبرت اللجنة القانونية التابعة للأمم المتحدة أن الاغتصاب يعد أحد جرائم الحرب، وقد ارتكب الصربيون من هذه الجريمة ما يفوق العد والحصر.

فى تقرير صادر عن مستشفيات زغرب وآخر عن الصليب الأحمر، أن عدداً كبيراً من المسلمات ضحايا هذا الإعتداء الآثم حاول الانتحار لقد فضل هؤلاء النسوة ـ برغم مخالفة التقاليد والعقيدة ـ الموت على الحياة بعد تعرضهن لتلك الأهوال. وثبت أن عدداً كبيراً من الأزواج المسلمين قتل الزوجات اللاتى أصابهن هذا الدّنس، ويمكن التقدير بأن ٨٠٪ من النساء الحوامل إما أفلحن فى الإجهاض أو الانتحار، وإما أن هناك عدداً من الأمهات ترك ـ بلا رجعة ـ مواليد هذا الحمل المفزع، وتولت الجمعيات الخيرية الكاثوليكية رعاية هؤلاء الأطفال!

إذا كانت تلك الجرائم الشنيعة قد برزت أخبارها ابتداء من شهر أبريل ١٩٩٢، فهى فى الحقيقة عُرفت منذ منتصف صيف عام ١٩٩١ مع بداية التصريح «بالتطهير العرقى» عقب الإعلان عن استقلال كرواتيا فى ٢٥ يونيو من ذلك العام. ثم جاء قرار حظر تصدير السلاح إلى يوغوسلافيا فى فى نوفمبر ١٩٩١. واستمر عدوان الصرب ـ المتخمين بالأسلحة ـ وارتكابهم لاعتداءات مشينة على الكروات

والبوسنيين. مثلا: فى ١٤ أكتوبر ١٩٩١ ، كان الأب «ميل بيشيش» وهو قسيس كاثوليكى كرواتى، يعبر طريقاً بقرية «ڤاجاناك» وبرفقته راهبتان،فاستوقفه جنود من ميليشيا الصرب، ثم اقتادوهم إلى بدروم مقر الشرطة المحلية الصربية. وهناك استمر ضربهم وتعذيبهم والاعتداء الجنسى على ثلاثتهم طوال الليل، ثم أفرج عنهم فى اليوم التالى. وطبقاً لما أعلنه رسمياً دكتور «كلايد سنو» الطبيب الشرعى والعضو بفريق الأمم المتحدة الذى يرأسه رئيس وزراء بولندا السابق «مازوفيسكى» ، فإن عدداً كبيراً من المقابر الجماعية المليئة بالجثث عثر عليه بشرق كرواتيا بضواحى مدينة «ڤوكوڤار» وذلك فى عام ١٩٩١ .

وعلى غرار مركز العبور (الترانسيت) أو الفرز والإيواء المؤقت فى كارلوڤاك للذين نجوا من التعذيب والهلاك، فهناك فى مدينة «زغرب» ثلاثة مراكز مشابهة فى الشرق والجنوب ووسط المدينة، وهذا الأخير يضم عشرين ألفاَ من المهاجرين الفارين من قُرَاهُم التى احتلها الصربيون، ومعظم هؤلاء من مسلمى البوسنة. يرتفع على مدخل هذا المركز (أو المعسكر) علم الأمم المتحدة، ولافتة كبيرة عليها آيات من القرآن. إلاّ أن الأمطار الغزيرة والثلوج حولت المكان إلى ما يشبه مستوقد حرق النفايات! تولى مهمة الترجمة لنا ـ نحن الصحافيين ـ طالب شاب يُدعى: «أمير» ، بادرنا بقوله: «إننى أعيش فى مونتريال بكندا مع عائلتى. لكننى قررت المجىء إلى البوسنة لمساعدة إخوانى وأخواتى، لأن هذا واجب ومشاركة فى الجهاد» .

في قاعة الطعام، موائد كبيرة مرصوصة يجلس إليها رجال ونساء وأطفال، تظهر على ملامحهم وثيابهم البالية علامات الهزال والبؤس والإرهاق الشديد. أحاديث الرجال تتركز حول كيفية حصولهم على السلاح للقتال وردع الصرب المعتدين وإيجاد مأوى آمن لزوجاتهم وأولادهم ـ اقترب من مائدتنا شاب في سن العشرين، بيده طبق فيه قليل من الحساء، يطلقون عليه هنا اسم «المشجوج»، هكذا أخبرنا «أمير» والسبب: بوجهه خطوط مائلة غائرة من أثر جروح خطيرة. بأعجوبة، سلمت عيناه الزرقاوتان «هكذا فعل بي الصرب» قال يحدثنا بهدوء «نرمين كاراچيك»: «لقد هاجموا القرية التي كنت أسكنها «سيليناك» القريبة من «بانچالوقا».

في هذا اليوم ـ ١٥ يوليو ـ كان نرمين يتجول ومعه كلبه بين أشجار الغابة التي يطل على حافتها بيته، فسمع أصوات طلقات نارية، فاختفى خلف الأشجار العالية المنحدرة نحو القرية، ومن موقعه، استطاع أن يرقب بوضوح ما يجرى من بعيد: «أخرج التشيتنك ـ جنود الميليشيا الصربية ـ الرجال رافعين أيديهم، ثم أخذوا في البحث عن الأسلحة. لكن القلة القليلة من المسلمين حملة السلاح لم يكونوا هناك، فقد ذهبوا للقتال في المواقع.. وبعد وقت قصير اختاروا نحو عشرة من الشباب أوقفوهم أمام حائط ثم أطلقوا النار عليهم أمام الجميع، ثم دفعوا بقية الأهالي للركوب في عربات نقل حربية».

ظل نرمين هائماً على وجه لمدة ساعات متجولا داخل الغابة، لايدرى أين يذهب. وعندما هبط ظلام الليل، التقى بثلاثة شبانٍ من القرية في طريقهم نحو الشمال.

يقول: «في الصباح، استوقفنَا جنود من الصرب، وتوجهوا بنا إلى بيت جعلوه مقراً للقيادة المحلية، وهناك انهالوا علينا بالضرب. رأينا بعض المعتقلين يموتون أثناء التعذيب. وفي حجرة مجاورة، أبصرْنا أحد البوسنيين وهو معلق كالذبيحة من رجليه في خطاف كالذى يستعمله الجزارون، لقد أنفذ الصربيون الخطاف في رجليه وهو ما زال حياً، فأغرقت الدماء جسمه وملابسه الممزقة. سددت أذنيّ بأصابعي حتى لا أسمع صراخه المفزع. بين الحين والحين، يأتي الجلادون الصرب، وأيديهم ملطخة بالدم، يبحثون عن ضحية أخرى يعذبونها ثم يطلقون عليها الرصاص. تعودنا سماع طلقات الرصاص الغادرة[1]. قررت ـ مع ثلاثة أصدقاء ـ أن نحاول الهرب.. انتهزنا فرصة نوم حراسنا، فأسرعنا في جُنح الليل بقتل اثنين منهم، وانطلقنا بأقصى جهدنا عبر نافذة كسرنا زجاجها دون أن نلتفت وراءنا. فانهال علينا وابل من الطلقات، كان بعضها يمرق مصفراً قرب أذني. سمعت صراخاً، لم أعبأ ولم ألتفت، مضيت بكل سرعتي. فلما توقف الصراخ وتباعد صوت طلقات الرصاص، وجدت نفسي وحيداً، مات أصدقائي، راحوا ـ استراحوا ـ مع الشهداء».

(١) بالمناسبة: ليست هذه مشاهد غريبة على الذين اعتقلوا في مصر من قبل، في أعوام الخمسينيات الماضية.

مرة أخرى يجد «نرمين كارچيك» نفسه هائماً منفرداً متجولاً بين القرى البوسنية، محاولاً قدر ما يستطيع أن يتجنب الاقتراب من الجسور (الكبارى) ومخافر التفتيش والحراسة العسكرية. أمضى على هذا الحال ثلاثة أيام بلياليها، لا يأكل إلاّ ما يصادفه من أعشاب، ويشرب من المياه الراكدة إن لم يعثر على نهر قريب. لم يحاول الاقتراب من القرى المهجورة. ومع ذلك فقد وقع فى الأسر للمرة الثانية!

«سوف نستبقيك لتحفر القبور». هكذا قال له الصربيون.

كان عليه أن يظل طوال النهار يعمل فى الحفر ودفن جثث القتلى من الرجال والنساء، وحتى الأطفال، الذين ذُبحوا أو أُطلق عليهم الرصاص!

تلك بعض الأمثلة وغيرها كثير مما ورد فى تقارير هيئة إغاثة اللاجئين التابعة للأمم المتحدة وغيرها من المؤسسات الدولية المعنية، وفيها شهادات الآلاف الذين عذبهم الصرب واعتدوا عليهم وعليهن. وهناك قائمة واحدة تضم أسماء نحو ألفين من الضباط وصف ضباط وجنود ميليشيا الصرب الذين ارتكبوا جرائم لا إنسانية، تضعهم فى زمرة مجرمى الحرب. ويطالب زعيم الطائفة الاسلامية فى زغرب «سيفكو عمر بازيش» بتكوين لجنة للتحقيق فى جرائم الحرب على غرار ماحدث بمحكمة «نورمبيرج» التى تشكلت عقب الحرب العالمية الثانية وحاكمت زعماء النازى الألمان.

إن اسم واحد من أكبر المتهمين بارتكاب جرائم تعذيب واعتداء صربى، معروف فى كل الأوساط، ونشرت صورته واعترافاته فى كثير من الصحف العالمية. إنه من جنود الصرب ويدعى: «بوريسلاف هيراك» : طويل القامة نحيف الجسم، مربع الوجه، حليق شعر الرس تماماً، نظراته زائغة، يبلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً. ولا يشك أحد فى أنه وحش فاتك. فى أول اعترافاته، ذكر أنه قتل وذبح على الأقل تسعة بوسنياً فى الفترة بين يونيو وأكتوبر ١٩٩٢. فى بداية نوفمبر التالى، أخطأ الطريق وهو يقود سيارة مسرعة، فألفى نفسه فجأة أمام نقطة تفتيش للمقاتلين البوسنيين. اعتقلوه على الفور، وزجُّوا به فى أحد سجون سراييڤو. ثم شرعوا فى استجوابه. فانهار واعترف تفصيلاً للمحققين.

قال: «كنت أجد صعوبة فى النوم ليلاً فالكوابيس تنتابنى، أبصرت طفلة عمرها عشر سنوات وهى تحاول الاختباء خلف جدتها بعد أن أطلقتُ الرصاص من مدفعى الرشاش على أسرتها: الأبوين والإخوة والأخوات الواقفين بجوار حائط. أطلقت عليهم ثلاث دفعات من الرصاص، عندئذ لم أستطع التفرقة بين لون الدم ولون ردائها الأحمر، أصبح هذا اللون مثيراً ومألوفا لدىّ، شاهدت مع غيرى مقتل مائتين على الأقل من مسلمى البوسنة والكرواتيين، كان قادتنا يحرضوننا على القتل ويشجعوننا على اغتصاب أكبر عدد من المسلمات.

بالقرب من «ڤوجوسكا» يوجد فندق «مقهى سونيا» احتُجز فيه عدد كبير من النساء المعتقلات، كنت أذهب إلى هذا الفندق بانتظام كل أربعة أيام لاغتصاب فتيات. كان قوادنا يأمروننا بالذهاب إلى هناك لرفع روحنا المعنوية، كان عدد النساء فى هذا الفندق يزداد كل يوم. لم يكن لدينا طعام يكفى لتلك الأعداد المتزايدة، فكنا نصحب بعضهن إلى التلال المجاورة بانتظام، ثم نصرعهن...» !!

فى يونيو ١٩٩٢، وفى ذات المنطقة، قاد «بوريسلاف» وحدة صربية أطلق عليها اسم: «مجموعة المهمة الخاصة». بهذه الوحدة، قتل مرة واحدة بحقل مجاور، مائة وعشرين رِجلاً وامرأة. ثم ألقى هو ورفاقه بجثث الضحايا ـ وبعضهم كان لا يزال حياً ـ فى حفرة كبيرة تشتعل فيها النيران. ثم يضيف: «كان قوادنا يعلموننا كيف نذبح المسلمين، بالشرح لنا والتدريب على خنازير بالقرية» !

ينتظر «بوريسلاف هيراك» محاكمته، وهو على يقين من صدور الحكم بإعدامه، ومع ذلك فهو لا يشعر مطلقاً بالذنب، مقراً بأنه كان أحياناً يفعل ذلك من أجل الحصول على نقود وحُلى الضحايا، ومن أجل الفوز بفتيات جميلات يفعل بهن ما يشاء، وأيضاً من أجل شراء جهاز تسجيل وسيارة!

«إن الضباط الصرب وزملائى الأكبر سناً منى أقنعونى بأنه واجب محتم علىّ أن أقضى نهائياً على كل المسلمين، لأنهم يريدون إقامة

حكومة إسلامية فى البوسنة» هكذا جاء بالنص فى اعترافاته.

وفقاً لما رواه أبواه، فإنه «بوريسلاف هيراك» كانا شاباً سوياً وديعاً تماماً، تربى فى سراييڤو داخل حى يسكنه ويتردد عليه الصرب والكروات والمسلمون. إن جدته لأمه كرواتية، وصهره مسلم. فكان كافياً أن توضع فى يديه بندقية.

... ...

وبعد:

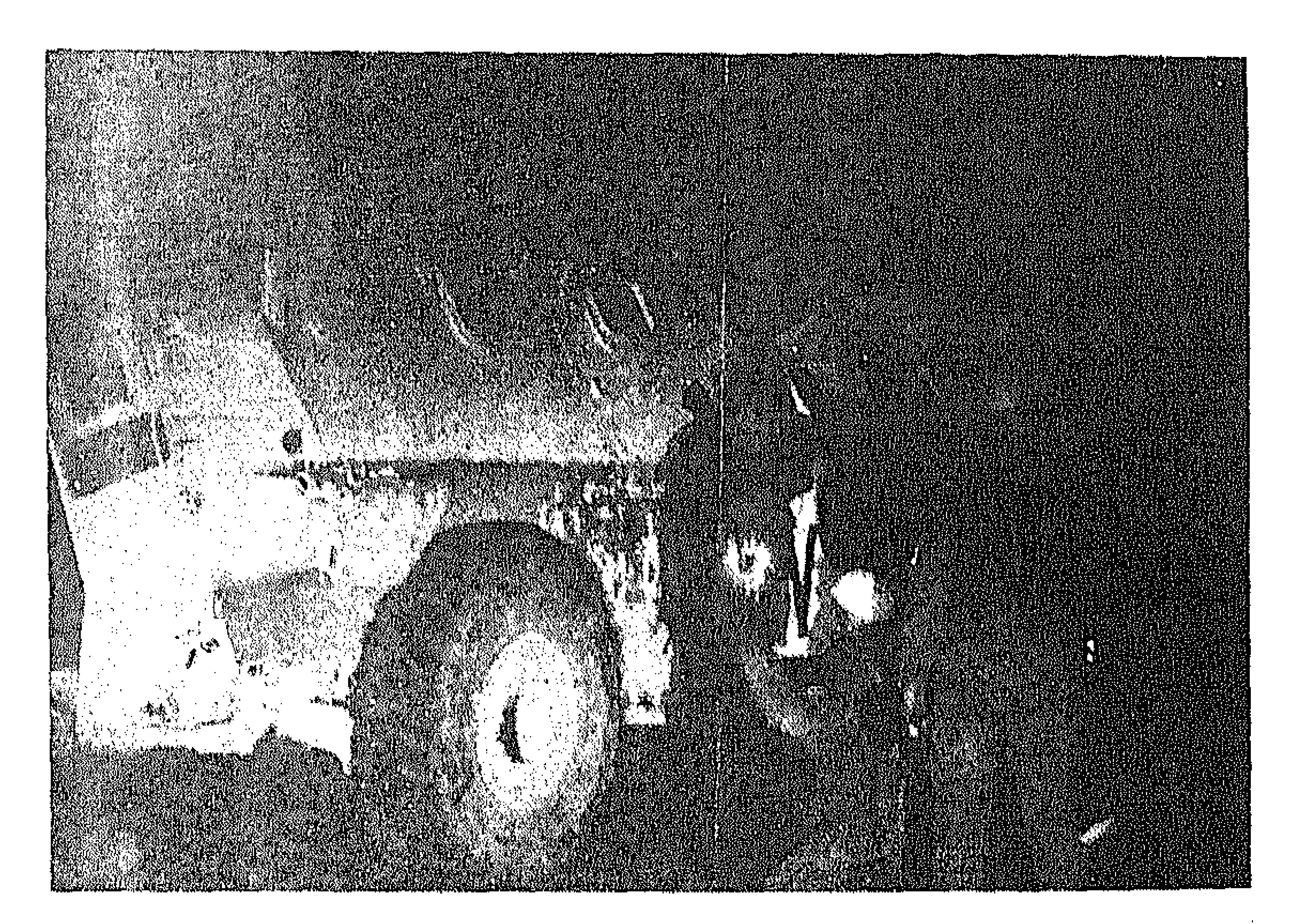
وماذا بعد!؟

لعل من الملائم أن نختتم الحديث عن هذه المأساة المروعة، المؤرقة، المخجلة، بكلمات وردت فى حوار مع الكاتب الأديب الفرنسى ـ أيضاً ـ «چان إدرن هالبيه» جاء فيه حرفياً:

«إن النظام العالمى الجديد هو بلا نظام... إن «المتحالفين» لا يتقبلون إلا الإسلام الواهى المبهم، ويحظرون على أية دولة عربية التغلغل فى عالم التكنولوجيا والعلوم والصناعة. وهنا يحفر الغرب قبره بابتعاث أعداد كبيرة من المتطرفين المتشددين السلفيين..».

فهل من مدّكر؟!

ألا قد بلّغت.. اللهم فاشهد!



تفتيش البوسنيين العابرين إلى قراهم تحت حماية الأمم المتحدة!



جثث الضحايا الأبرياء من المدنيين المسلمين تتكدس فى مشرحة سراييفو التى ضاقت بأعدادها.



ملعب لكرة القدم فى مدينة كوسوڤر تحول بأجمعه إلى مقبرة للشهداء المسلمين بعد أن ازدحمت المقابر بالضحايا



فى مواجهة الموت: هذا الشاب المدنى البوسنى يواجه رصاص «المقاتلين» الصرب، بعد ثوانٍ سيكون فى عداد الشهداء



يقول العنوان: ٦٠ ألف امرأة بوسنية مثلهما البوسنة اغتصبهن الصرب!.



فتيان من مسلمى البوسنة ـ بعضهم فى سن ١٢ سنة ـ لحظة إطلاق الرشاشات الصربية عليهم فأردتهم جميعا بالطريق وقتل معهم رجلان وامرأتان من المسلمين المدنيين، من مسافة ١٥٠ مترا !.



جثث الضحايا البوسنيين تلقى فى الأنهار حتى تتعفن



العمليات الجراحية العاجلة تُجرى بدون تخدير!

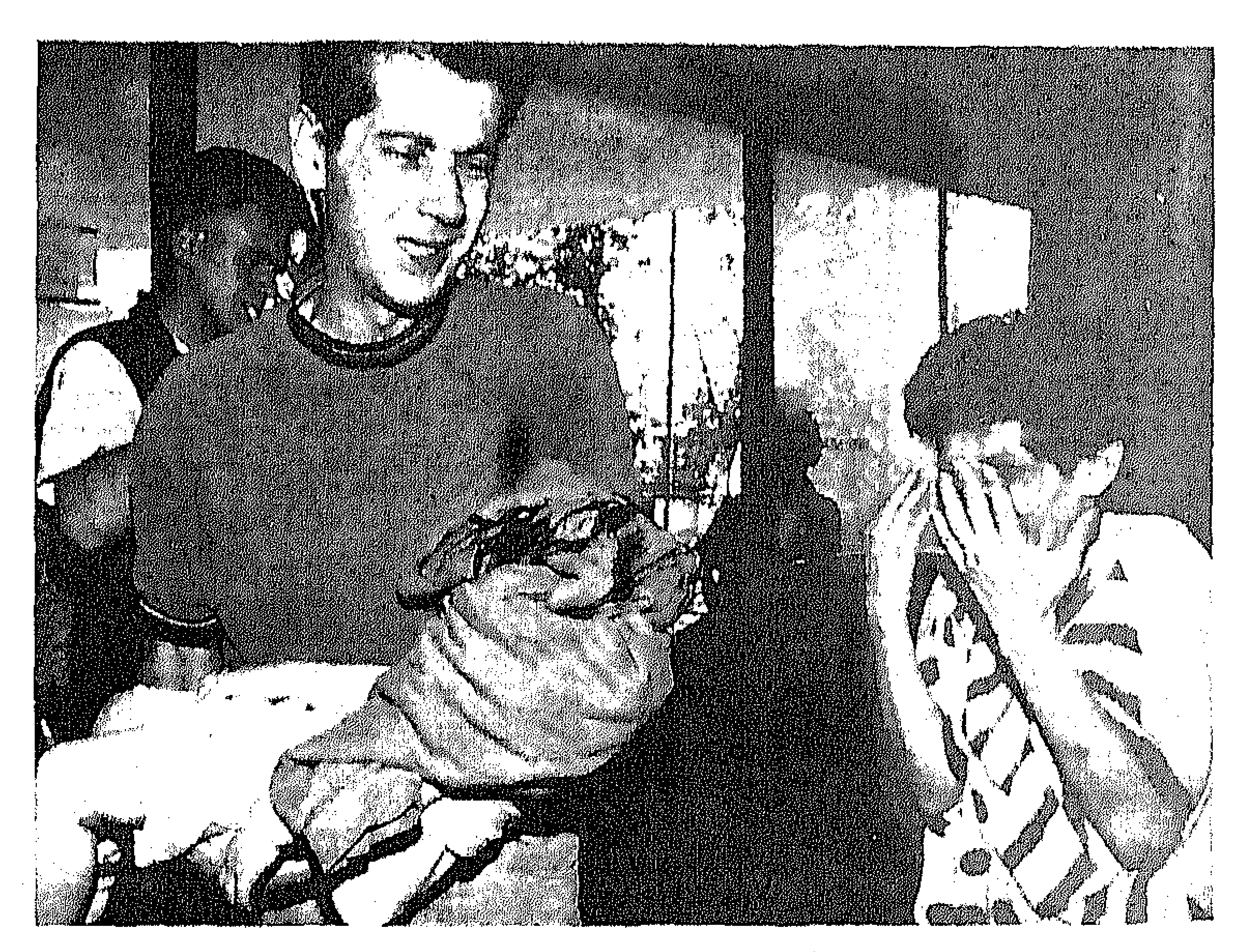


عنوان مجلة «تايم» :

جرائم بلا عقاب وتحت الصورة التى يبدو فيها جندى من الصرب يدوس بقدمه جثة الضحية البريئة: صربى يفرض الإعدام فى «ڤوكوڤار».



أصبحوا من اللاجئين يتزاحمون على الماء النادر وجوده فى البوسنة



بكاء الأم والأب الذى يحمل طفله المقتول بوحشية



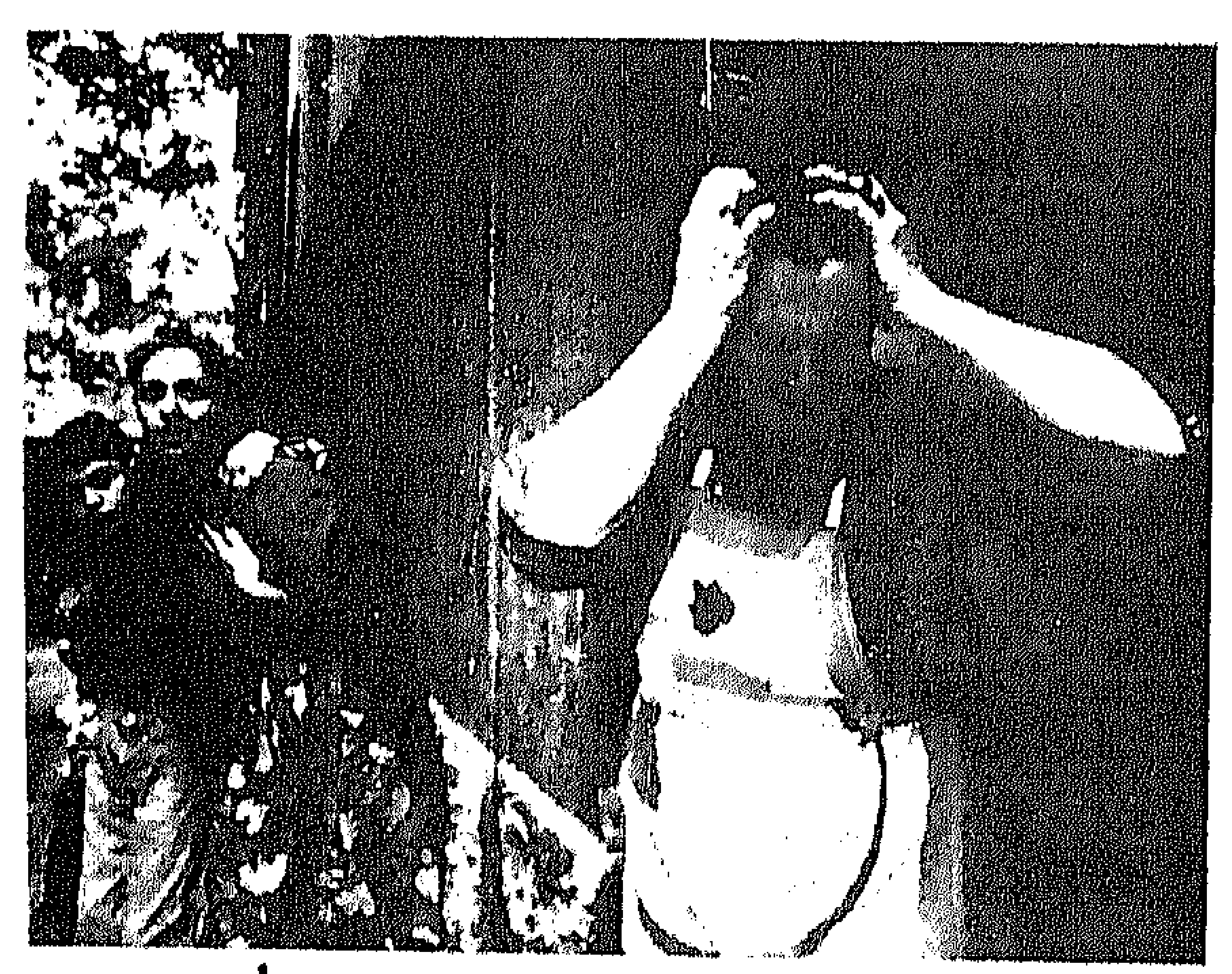
تسعة وعشرون ضحية من المسلمين قتلهم الصرب معا وهم فى الطريق إلى قريتهم



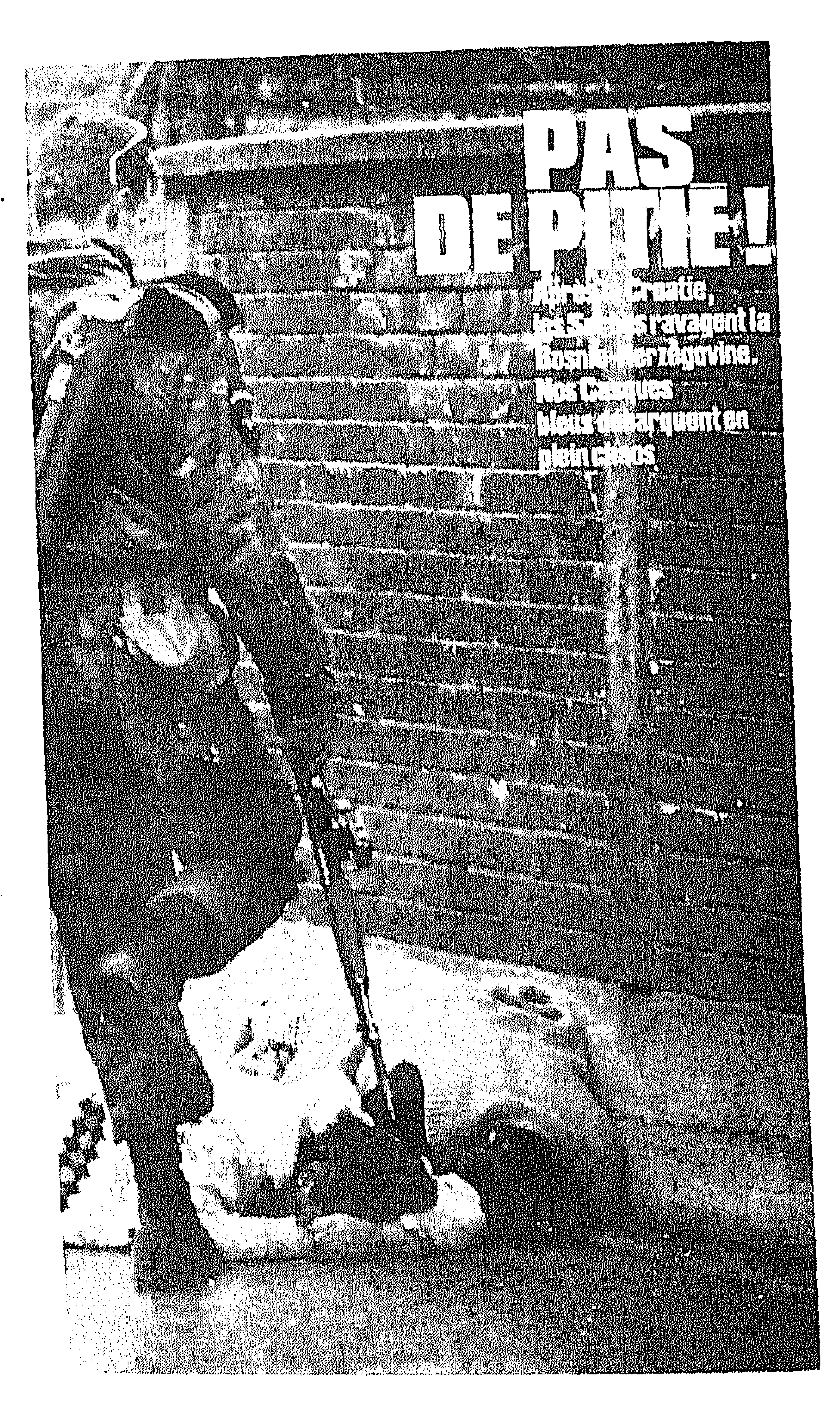
كل الحزن والأسى والرعب على وجوه الأمهات والأطفال المسلمين الذين دمرت بيوتهم وفروا من الهلاك







سراييفو: هؤلاء الأبرياء على وشك أن يُقتلوا



وهكذا فعلا الصربيون مع المسلمين؟!



طابور من أهالى البوسنة لإحضار مياه للشرب

الفهرس

هذا الكتاب ...

مأساة كاملة يعيشها شعب كان آمنا مطمئناً . وعلى مرأى ومسمع من العالم كله ومؤسساته الدولية تُرتكب أبشع الجرائم على أرضه كل يوم ، وعلى مدار أكثر من عام ، وتتابع وسائل الاعلام فصول المأساة المروعة التى لا تريد ـ أو لا يُراد لها ـ أن تنتهى !

وكم من أنباء وأراء متضاربة متناقضة ، وأحياناً مغلوطة مزيفة ، ترددها التحليلات والتعليقات ، وإن كان الحق فيها لايحتاج إلى ذكاء خارق لاستظهاره، ولا إلى عبقرية فذة لإبراز معالمه .

إن شعب «البوسنة والهرسك» مع كل العذاب والدمار الذى يتعرض له ، يضع العالم المعاصر ـ وأمة الإسلام خاصة ـ أمام واقع تكتنفه المرارة والهوان ، ولعله يفتح القلوب والأبصار إلى تدبر قانون السماء : «إن الله لايُغَيّرِ مابقوم حتى يُغَيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مَرَدَّ له ومالهم من دُونه من والٍ» .

فهل نحن فاعلون ؟ .....

الناشر

